الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

حسام عباس

الرسالة

رئيس التحرير:
أحمد حسن الزيات
تصدرها
الثقافة والإرشاد القومي

تليفون ٥٣٩٤٠
٤٢٧٩٤

في هذا العدد

الاشتراكات:
١٥٠ قرشا سنويا
يضاف أجر بريد من
خارج ج.ع.م.

الإدارة:
٢٧ ش عبد الخالق ثروت
بريد: محمد فريد - القاهرة.

العدد ١١١٩ - الخميس ٢٤ صفر ١٣٨٥ هـ - ٢٤ يونيو ١٩٦٥م - السنة الثانيه والعشرون

عيد الجلاء

بقلم : أحمد حسن الزيات

ما كان أعظم هذا اليوم من تاريخ مصر ! وأى يوم كان أعظم من يوم الجلاء ؟ جلاء المحتل عن أراضى الوطن ، وجلاء الذل عن نفوس الشعب ولكل أمة من الأمم الحية الناهضة يوم كهذا اليوم ، يشرق فى ماضيها اشراق العيد ، ويمض فى مستقبلها وميض الأمل . وهو أجل من آجال الله اذا جاء لا يؤخر . انما يسبقه ليل طويل بالألم ، مظلم باليأس ، مرعد بالهول ، مطلول بالدم . أوائله خطوب وأواخره ضحايا ! ولقد كان ليل مصر الباسلة من أطول هذه الليالى وأهولها ، كان طوله أربعا وسبعين سنة ثقالا قضيناها تحت نير الاحتلال الانجليزى الباهظ ، نحرث وهو يسوق ، ونزرع وهو يحصد ، وننتج وهو يستفيد ، ونعمل وهو يوجه .

كان لنا عرش ولم يكن لنا ملك . وكانت لنا حكومة ولم يكن لنا حكم . وكان لنا وطن ولم يكن لنا أرض ! كان الملك الفعلى لانجلترا ، والحكم النافذ للعميد ، والأرض الطيبة للدخيل .

وكان الذين مكنوا للاحتلال ووسعوا من نفوذه وأطالوا من عمره ، خلفاء الخائن (توفيق) ومن وزر لهم أو اغتر بهم من طلاب الحكم ومحترفى السياسة . وأكثرهم دخيل لم يجر فى عروقه الدم المصرى الكريم . فلما أذن الله لهذا الليل الطويل أن ينجلى ، ولهذا الاحتلال الثقيل أن يزول ، جعل حكم مصر فى أيدى نفر من أبنائها

لم يولدوا فى عهود النعيم ، ولم يصابوا بأمراض الغنى ، وانما نشأوا فى قرى الريف فذاقوا الألم • وشبوا فى مدن الحضر فعرفوا النقص ، وانتظموا فى كتائب الجيش فكشفوا الداء • ثم تجلت فيهم عبقرية الجنس فثاروا ثورتهم المباركة على الطغيان الفاحش فكان يوم الحرية ، ونهضوا نهضتهم الحازمة للاحتلال الظالم فكان يوم الجلاء •

أما يوم الحرية ، أو اليوم الثالث والعشرين من شهر يوليو سنة **١٩٥٢** فكان خاتمة لاثنين وأربعين قرنا من العبودية ، ابتدأت برفع (مينا) على العرش ، وانتهت بخلع (فاروق) من الملك • كان الشعب المصرى طيلة هذه القرون لا ارادة له فى نفسه ، ولا قيادة له من جنسه ، وانما كان يتولى قياده رعاة طغاة سموا أنفسهم آلهة أو ملوكا أو ولاة ، سخروه ليظلموه ، واستغلوه ليحرموه • ولم تعصمه هداية الدين من عبث خليفة كالحاكم ، ولا مدنية العلم من فجور ملك كفاروق •

وأما يوم الجلاء أو اليوم الثامن عشر من شهر يونيو سنة **١٩٥٦** فكان خاتمة لأربعة وسبعين عاما من الذل ، جثم فيها الاحتلال الثقيل على صدر الوادى من جنوبيه الى شماليه جثوم الكابوس المهلك ، فحجب الضياء ومنع الهواء وشل الحركة وحاولت مصر أن تزحزحه بسلاح الحق وسلطان الحجة فلم تظفر الا بالوعود الخيالية والأقوال الكاذبة • ثم استعان على قهرنا بالضعف والجهل • فمنع جيشنا السلاح والتدريب ، وحرم شعبنا العلم والتهذيب ، وقطع ركبنا عن قافلة الحياة فأخرنا فى المسافة والمدة •

ان معركة القنال كانت ردا حاسما على معركة التل الكبير • وان انتصار جمال عبد الناصر فى السياسة كان انتقاما عادلا لهزيمة أحمد عرابى فى الحرب • وان الجيش الذى أخرج الانجليز من مصر بقوته ، قد غسل العار عن ذكرى الجيش الذى أدخلهم فيها بضعفه •

أحمد حسن الزيات



ليس الطريق هنالك

بقلم : محمود محمد شاكر

- ٢٢ -

انى لأجده حقا على ان افسر اشياء ، انا فى نفسى غنى عن تفسيرها لأحد . ولكن الكاتب معلق بقارئه، فاذا اغفل أن يجعل قراءه على بينة من طريقه ، كان خليقا أن يصبح فيجد بينه وبينهم سدا مضروبا ، يعوقهم عن ادراك حقيقة ما يقول ، أو يتركهم فى اختلاف يقطعهم عن النفاذ الى الغاية التى من أجلها يكتب ما يكتب . وكم من كاتب فى هذه الأرض ، على اختلاف ألسنة أهلها ، قضى عمره يستصفى للناس عصارة تجاربه فى كلمات ، ثم خرج من الدنيا وكأنه لم يقل شيئا ، ولم يكتب شيئا ، ثم يأتى على الناس زمان ، فيجدونه قد أبرأ ذمته ، وأدى للناس أقصى حقهم عليه ، ولكنهم ذهلوا عنه ، وأعفوا أنفسهم من الأناة على فهم طريقته أو أسلوبه ، لعلة قائمة فى بيانه عن نفسه ، أو لعلة قائمة فى أنفسهم ، حالت بينهم وبين بذل الجهد فى متابعته ، وفى تقصى الوجوه التى يحتملها كلامه ، فلم يأخذوا عنه الا أهون ما يقول ، وأقرب ما يريد . فمن أجل ذلك ، ومن أجل الأمانة التى أجدنى أحملها ، ومن أجل أهلى وعشيرتى ، وجدته حقا على أن أفسر شيئا ، أخشى أن يؤدى ترك تفسيره الى الاخلال بحق هذه الأمانة .

ويوم بدأت أكتب هذه المقالات ، وأنا على مثل اليقين من أن بينى وبين الناس فجوة قد انخسفت واتسعت ، من سوء التقدير أن أغفلها وأسقطها من حسابى ، لكى أتخفف من عبء كتب على أن أحمله . فلذلك بدأت حريصا أشد الحرص على أن أسير خطوات ، خطوة بعد خطوة ، بلا عجلة أو تسرع . وأحب أن أجعل كل قارىء على محجة بيضاء ، لايشتبه عليه فيها شىء ، حتى تضيق هذه الفجوة التى بدأت واسعة ، ثم ضاقت قليلا ، فوصلت بينى وبين كثير من القراء . ولكنها زادت اتساعا بينى وبين آخرين، لأسباب سأذكرها فيما بعد . ومن حق هؤلاء على ، أن أمحضهم أقصى ما أجد من الابانة ، فان وجدونى على حق ، فذلك من توفيق الله ثم من فضلهم على ، وان وجدونى مبطلا ، فأنا أحق الناس أن أفارق باطلى الى حقهم غير مستنكف ، وشر من مفارقة الباطل ، اقامة المرء عليه استكبارا وعلوا .

كان الأمر عندى منذ أول يوم واضحا . رجل كتب شيئا ، فرأيت فيما كتب أشياء . كان هذا الرجل عند الناس معروفا على صورة ، وعرفته أنا على صورة مناقضة لما يرون تمام المناقضة . والطريق الذى عرف الناس به هذا الرجل على الصورة التى توهموها ، هو ما كتبه بقلمه ،والطريق الذى عرفت به هذا الرجل على صورته عندى ، هو نفس الشىء ، هو ما كتبه بقلمه ، فاجتمع لى وللناس أمران :

الأول : ما كتبه هذا الرجل من شىء ، رأيت أنا فيه أشياء أعيبها .

والثانى :صورة هذا الرجل عند الناس ،وصورته عندى .

وهذان الأمران موضوعان بلا شك ، ولكنهما موضوعان مختلفان كل الاختلاف ، لا فى جوهرهما

فحسب ، بل في الطريقة التي يعالج بها كل «موضوع» منهما على حدته . أليس هذا واضحا ؟ أليس هذا صحيحا ؟ أظن أن : نعم ! فاذا أراد ناقد أن ينقد ما كتبه هذا الكاتب ، فسبيله أن يتناول « مادة » ما كتب مجردة ، ثم يقول فيها ما يشاء من تحسين أو تقبيح ، أو موافقة أو مخالفة ، أليس هذا أيضا واضحا ؟ أوليس هذا أيضا صحيحا ؟ أظن أن نعم ! واذا رأى الناقد أن ما كتبه الكاتب قد خالطه شيء مما له صلة وثيقة بالصورة التي يراه بها الناس ، والصورة التي يراه هو بها ، صار الأمر معقدا بعض التعقيد . لأن هذه « الصورة » نتاج طبيعي استولده الناس من كتابة هذا الكاتب، واستولده الناقد أيضا من كتابة هذا الكاتب . أليس هذا واضحا ؟ أوليس هذا صحيحا ؟ أظن أن نعم ! وكلام الناقد في « المادة » وكلامه في « الصورة » ، كلام « موضوعي » بلا ريب . أليس هذا واضحا ؟ أوليس هذا صحيحا ؟ أظن أن نعم !

واذا كان لكل كاتب هدف فيما يكتب ، أليس من حق الناقد أن يستبين هذا الهدف ؟ أليس من واجبه ؟ أظن أن نعم ! فاذا كان الهدف الذي يرمى اليه الكاتب ، متعلقا أشد التعلق بنفس « الصورة» التي يعرفها الناقد عنه ، أفليس من حق الناقد ، أوليس من واجبه ، أن يستخرج من « الصورة » نوازعها ودوافعها ، لكي يستطيع الابانة عن حقيقة « الهدف » الذي من أجله كتب الكاتب ما كتب ؟ أظن أن نعم ! واذا كانت « الصورة » التي يعرفها الناقد ، لا تنشأ الا مما كتب الكاتب قديما وحديثا، أفليس من حق الناقد ، أوليس من واجبه ، أن يحلل ألفاظ الكاتب ، وأسلوبه ، وطرائق تفكيره ، وترابط عباراته وجمله ، حتى يتمكن من اعطاء « صورة » كما يراها هو ، لا كما يراها الناس ؟ أليس هذا صحيحا ؟ أظن أن نعم !

واذن فتحليل «المادة» ، واعادة تكوين «**الصورة**» أمر لا مفر منه ، اذا رأى الناقد أن للكاتب « هدفا » فيما كتب ، ولا سيما اذا كان الكاتب كاتبا يضمن ما يكتب كثيرا من عواطفه وانفعالاته ، بطريقة واضحة شديدة الوضوح . والناقد عندئذ ناقد « موضوعي » ، لا يخرجه عن « الموضوعية » أنه مضطر أن يناقش « مادة » ، في نفس الوقت الذي يحلل فيه «صورة» ، ويعيد تكوين معارفها ومعالمها .

ويأتي التعقيد الذي أشرت اليه من شيء لا بد من معرفته .

وذلك أن مناقشة «المادة» أمر مألوف قد طال الأمد عليه ، فالناس يأخذونه مأخذا قريبا لا يثيرهم ولا يصدمهم في شيء ، أما تحليل « الصورة » واعادة تكوين معارفها ومعالمها فهو عسير بعض العسر ، لأنه ربما أثار وربما صدم . فأنت اذا أردت تحليل «صورة» لشاعر أو كاتب قد خلا وتباعد زمنه عن زمان الناس ، تلقاه الناس بلا استنكار لما تقول فيه من معروف أو منكر ، الا أن يكون أحدهم له محبا ، وبه معجبا ، واليه مائلا ، فربما أثاره ما تقول فيه أو صدمه . بيد أن الأمر يختلف اختلافا كبيرا اذا كانت « الصورة » صورة شاعر حي بين الناس أو كاتب، فالعلاقات بين الأحياء أشد توترا ، وأقرب الى سرعة الاهتزاز ، فالمحب له والمبغض ، كلاهما سواء فيما يجد من الاثارة . فهذا يثيره الى الاعجاب بك ما تقوله فيه ، وذاك يثيره الى الاستنكار عليك ما تأتي به . ولكن هذا أمر لا مفر منه ، فالناقد يرتكبه وهو على ثقة ، أو ينبغي أن يكون على ثقة ، من أنه ملاق من الاعجاب والاستنكار ، ما هو ضرورة ملازمة للموضوع الذي يتناوله بنقده ، وتحليله ، واعادة تكوينه . وهذه بدائه فيما أظن ، ولكن ربما جرف الهوى في تياره هذه البدائه ، فيزداد المنكر عليك انكارا ، فربما غلا في انكاره ، وربما خفض بعض انكاره ، تبعا لما عنده من القدرة على الانصاف والعدل ، ومن النظر وحسن التهدي الى طبائع الأشياء ، ولكنه يبقى على كل حال مغاليا في الانكار ، سواء ساق انكاره في صورة عتاب ، أو في صورة ذم ووقيعة .

ولما كان تحليل «الصورة» واعادة تكوين معارفها ومعالمها ، متعلقا بشخص حي ساع في الأرض ، فمن المعقول الذي ينبغي للناقد أن يعرفه ، أن المنكر عليه اذا أراد أن يصوغ انكاره في عبارة مؤدية عما في نفسه ، فهو خليق أن يزعم أن هذا التحليل والتكوين ، ليس « موضوعيا » ، بل هو « شخصي » محض ، وذلك انكار لا مفر منه أيضا ، ولا سيما اذا كان الأمر شديد الظهور ، وكان ناقضا لكل ما عند المنكر من اعتقاد في الكاتب الذي يحلله ويعيد تكوين صورته . ولكن ينبغي أن لا يفرغ الناقد من هذا اللفظ ، الا اذا كان دافعه الى النقد أمرا

« شخصيا » يقوم بينه وبين من ينقده ، لأنه عندئذ خليق أن يرتكب فى نقده ما ينبغى أن يخلو منه ، وهو ترك الانصاف ، وتحكيم عاطفة البغض او الحب فى تفسير كلام الكاتب • ومع ذلك ، فالناقد نفسه، معرض لمثل ما فعله هو بالكاتب وصورته ، وظهور تحيزه قريب ، لأن الاحتكام الى كلام الكاتب ، خليق أن يكشف عن مقدار تحامله عليه ، اذا اتبع المرء نفس طريق التحليل واعادة التكوين ، فهـذا هو الضابط الذى يفصـل بين الناقد الذى يتنـاول « صورة » ، ويعالجها معالجة « موضوعية » ، والناقد الذى يتناول « صورة » ويعالجها معالجة «شخصية» •

وأخوف ما يخـاف فى وصف هـذا العمل « الموضوعى » بأنه « شخصى » ، انمـا يأتى من الأمور التى تتعلق بشخص الكاتب ، من حيث هو كاتب تدل كتابته على شخصية كاملة • فالكاتب ربما كان سيىء الهدف، وكان مع ذلك عاقلا شديد العقل، وربما كان مضطرب العقل مسـترخى القوى ، مع خلوه من سوء الهدف • فليس لسوء هدفه يوصف الكاتب بما لا تدل عليه عباراته من استحكام العقل والنظر ، ولا لحسن هدفه يوصف الكاتب بأنه ركين عاقل • وكذلك أمره فيما أصـاب فيه وما أخطأ ، فالاصابة لا توجب له صـفة ليست له ، والخطأ لا يستدعى اليه صفة هو منها برىء • بيد أن الناقد لا يستطيع أن يتخلى عن استحداث « الصـفات » لكاتب ينقده ويحلله ويعيد تكوين صـورته ، لأن « الصورة » انما تعرف وتستبين وتظهر بالألفاظ التى تسميها « صفات » • ولما كان ذلك كذلك ، فالناقد اذا لم يجد بدا من اسـتعمال ألفاظ بعينها ، هى للكاتب « صفات » ، وكانت هذه « الصفات » مما ينكره الناس أحيانا ، فهو مهدد تهديدا شـديدا بأن يقال له : ان الذى تكتبه ليس « **موضـوعيا** » ، بل هو « **شخصى** » ، لأنه ينـال من « صـورة » شخص يتولى الابانة عن نفسه بالكتابة • فهـذا مأزق ضيق ، يقع فيه الناقد ، اذا وقع هـو على « شخص » فيه « صفات » منكرة ، لا تظهر الا من تحت بناء الألفاظ والتراكيب • وظهورها من تحت بناء « الألفـاظ والتراكيب » ، ليس من اليسر بالمكان الذى يجعلها قريبة المتناول لكل قارىء من القراء ، أو صديق من الأصدقاء •

واذا كان ذلك كذلك ، فمن اليسر بمكان ، أن يأتى المحب فيقول للناقد ، صادقا أو غير صادق ، هذا نقد « غير موضوعى » ، بل هو « شخصى » • ومن اليسر بمكان ، أن يأتى هذا المحب ، فيلقى بين الناس مقالة يقولها ، صادقا أو غير صادق : هذا نقد « غيرموضوعى » ، بل هو « شخصى » • ومن اليسر بمكان ، أن يصدق ذلك ناس ، اما لأنهم لم يقرأوا ما كتبه الناقد متتابعا ، أو قرأوه متتابعا، ولكن عرض لهم النسيان ، أو قرأوه متتابعا ، ولم يعرض لهم النسيان ولكنهم قرأوه متعجلين ، أو قرأوه متتابعا غير ناسين ولا متعجلين ، ولكنهم لم يعرفوا موضع الفصل بين ما هو « موضوعى » فى علاج « مادة » الكاتب ، وبين ماهو « موضـوعى » أيضا ، فى علاج « صورة » الكاتب ، بتحليلهـا واعادة بنائها وتكوينهـا ، وظنوا أن كل علاج للصورة ، انما هو « شخصى » لا « موضوعى » وأنه ربما كان « تجريحا » !!

فاذا بلغ الأمر أن يكون الكاتب انمـا تكونت صورته عن طريق غير طريق الكتابة وحدها ، وكان منتميا الى عصابة من الناس ذوات أهداف متعاونة متآزرة ، وكان لهذه العصـابة فى الناس مظهـر ورأى ، فاسد أو غير فاسد ، وكان لهم نشـاط وسـعى فى الأرض ، وروابط تخفى أو تظهر ، وكانت لهم ألسـنة تجـول وتتنقل من مجلس الى مجلس ، ومن مكان الى مكان ، وتزور أقوالا مرتبة ، وتلقى بها أسماعا غير متأهبة لحسن الاستماع ، اما عن عجلة ، واما عن كثرة شواغل ، فان الناقد يقع عندئذ فى خلية نحل من الأصوات التى تقول وتتكلم وفى ورطة من الأسماع التى لا تعطى الكلمة حقهـا من حسن الاستماع ، وهو الأناة ، والصـبر ، والمراجعة ، ونقـد الأقوال الملقاة اليهـا ، وتمييز أصحابها من هم ؟ ومن يكونون ، ولم قالوا ما قالوا؟ وهل هم صـادقون فيمـا يقولون ؟ أم كاذبون مزورون ؟

وبين مما حاولت الابانة عنه أن علاج « صورة » الكاتب ، أمر «موضوعى » ، لا « شـخصى » ، ولا « ذاتى » وأنـه ليس بتجريح للكاتب ، اذا كانت « الصفات » التى يستحقها ، مستخرجة من نفس كلامه ، من نفس منطقه ، من نفس تفكيره ، من نفس ضميره ، من نفس هدفه • وكل لفظ يتضمن « صفة » من صفاته ، لا يمكن أن يعد « تجريحا » ،

اذا كان مأتاه من تحليل الكلام والأهداف ، مهما بلغت هذه « الصفات » من القسوة ، أو الغرابة ، أو الاستنكار • بل الأمر المستنكر كل الاستنكار على الناقد ، والأمر القادح فيه وفي نقده ، أن يخون الأمانة ، حين يجد كاتبا مختل التفكير ، بين الضغينة ، بذيء النفس ، قبيح الأغراض ، سيىء الأدب ، ويجده يستخدم ذلك كله في كتابته ، ليبلغ الى هدف سيىء معيب ، فيدع ذلك مستورا ، ويتناول كلامه مجردا ، وينقده نقدا « موضوعيا » • بل اقول أكبر من ذلك : ان الناقد اذا فعل ذلك كان أضر على الناس وعلى عقولهم ، من الكاتب نفسه ، لأنه يظهر هذا التالف بمظهر من خلا من كل قادح في تكوين ما يكتبه ، وهو أشد خيانة للأمانة ، وأبعد ايغالا في الغش واللؤم وخسة الطباع ، وهو فوق ذلك مدلس سخيف التدليس •

وانا حين بدأت هذه المقالات، نظرت لما فيه مصالح الناس ، ولما فيه أداء حق القلم ، ولكل شيء آنف لنفسي أن اقع فيه ، فأخذت «مادة» ما كتبه «**أجاكس عوض** » ، فأبنت عن تهافتها وسقوطها وانحدارها وخستها ، من حيث هي دراسة أدبية ، لان صاحبها ادعى « منهجا » ، فانكشف لي وللناس أنه لا يحسن شيئا على الاطلاق مما يسمى «منهجا» ، بل هو جاهل كل الجهل بالدراسات الادبية على الأصح • فلما فرغت من ذلك في مقالاتي الاولى ، أطرت عنه هذا «الطيلسان الجامعي» ، الذى أعلم كيف جاءه ، ومن الذى ألبسه اياه ، ولم الحقه به ، وأبيت الا ان آخذه مجردا ، لان أخذه وهو في هذا «الطيلسان الجامعي» ، غش فاضح ، وخيانة لأكبر أمانة يحملها صاحب رأى أو قلم •

فلما فعلت ذلك ، عدت فأخذته من كلامه كله ، قديمه وحديثه ، فكشفت عن «الحالة المرضية» التي عاش فيها منذ بدأ ، ولم يزل يعيش فيها الى هذا اليوم ، وألبسته مكان «الطيلسان الجامعي» ، صفاته التي استحقها من تحليل «صورته» الناتجة من نفس كلامه ، لا من أهوائي ولا من معلوماتي الخاصة ، فاذا كانت هذه « الصفات » شيئا مستغربا لطول الف بعض الناس لالحاق لفظ «دكتور» باسم هذا الآدمي ، فاني ازالة هذا الالف نفسه عمدت لا لشيء غيره • لانه بهذا الالف كان كاتبا صاحب « صورة » عند الناس • وكان واجبي يقتضيني أن أعمد الى تحليل هذه «الصورة» منذ نشأت ، أستخرج حقيقتها من ألفاظها التي كتبتها بانفعال في « بلوتولند وقصائد أخرى» ، ثم في سائر ماكتبت، ولم أتجاوز قط الحد الذي بينته آنفا في الحديث عن علاج « الصورة » هل هو «موضوعي» أم «شخصي» • فمن استطاع أن يجد أني خالفت هذا النهج ، وسلكت غير ما يجب علي سلوكه ، فليأتني بذلك في شيء مما كتبت ، والا فان الصمت أولى به من الكلام سرا أو علانية • ومن عرف لعلاج « الصورة » ، وتحليلها واعادة تكوينها للدلالة على حقيقة صاحبها ، طريقا غير الطريق الذى سلكت ، فليهدني اليه ، فان فعل ، فله علي أن أخرج مما كتبت بلا مكابرة أو عناد •

وانا ، بلاريب ، لم ادخل في بياني هذا شيئا من الوسائل التي يستدل بها على «الصورة» الباطنة التي يهتدي اليها من يهتدى من طول تجربته وتنبهه الى ما يغفل عنه غيره • فبعض هذه الوسائل يحتاج الى خبرة ، كالخبير الذي يقرأ خطك ، فيعرف ما يدل عليه الخط من مكونات الشخصية ، فهذا بحث آخر، وان كنت قد استخدمته في اتمام « صورة » هذا الآدمي ، على الوجه الذى اعتقد انى أخلصت له النية، بلا تحيف عليه في خلق أو جور في قضية ، أو ظلم له في صفة • ولكن العيب الذى داخل مقالاتي ، انما جاء من أني خلطت الامرين جميعا خلطا واحدا ، فناقشت « **المادة** » ، وحللت « **الصورة** » وأعدت تكوينها ، في سياق واحد ، فربما سبق شيء شيئا، فيرى كأني جئت به بلا دليل عليه • ولكن المتتبع ، خليق ان يجد ذلك كله نسقا واحدا ، اذا هو أتعب نفسه بعض التعب ، فقرأ كل ما كتبته متتابعا ، بلا عارض نسيان ، وبلا سائق عجلة ، وبلا تعصب لعصابة لها رأى ، تتناصر عليه بالحق وبالباطل •

وكان هذا حسبي ، الا أني قرأت منذ ساعات قلائل كلمة لرجل عرفته منذ كان ناشئا ثائرا شديد الحفاوة بالمعرفة ، مقبلا عليها ، على حيرة كانت تنتابه وتموج به • وكان معذورا في حيرته ، لان زماننا ذاك ، كان ميتة من الاحياء ، من لا يجد في نفسه شيئا من الحيرة التي قد تفضي الى نفض اليد من كل شيء ، ولو بلغ أن يرفض الحياة كلها بفراق الحياة ، لكان معذورا أيضا • وأحببته يومئذ ، ولكنه ضل عني سنوات وأضللته ، ولم أتبينه في الناس

الا بعد سنوات طوال ، ولم تنقص غيبته عني شيئا مما كنت أجده له في نفسي ، مع أنه جاءني وقد تغير أمره ، وحمدت من أمره شيئا وأنكرت أشياء ٠ وهذا الصديق القديم هو الأخ الاستاذ **محمد عودة** ٠ فقد كتب متفضلا أعظم الفضل ، في صحيفة الجمهورية ، في يوم الاحد ٢٠ صفر سنة ١٣٨٥ (٢٠ يونية ١٩٦٥) كلمة لا استطيع ان أؤدي حقها علي ، ذكر فيها **«القوس العذراء»** ، التي نشرتها منذ قليل ٠ فقد فاجأني بشيء أنكره كل الانكار ، لانه وضعني بمنزلة لا استحقها في تاريخ أمتي العربية ، ولا أراني أبلغ فيمن ذكر مبلغا ينظر اليه بعين التمييز ٠ ولا أقول هذا تواضعا للثناء ، فلست أتواضع ، ولكني أحاكم نفسي الى نفوس آبائي وأسلافي ، فأجدني كالزائدة التي لا نفع فيها ولا خير ٠ واذا كنت قد جئت في زمان خلا مما يزينه ، فانما مثلي مثل حارثة بن بدر الغداني ، وقد اجتاز بمجلس من مجالس قومه بني تميم ، ومعه مولاه كعب ٠ فكلما اجتاز بقوم قاموا اليه وقالوا : مرحبا بسيدنا ! فلما ولى ، قال له مولاه كعب : ما سمعت كلاما قط أقر لعيني ، ولا ألذ بسمعي من هذا الكلام الذي سمعته اليوم ! فقال له حارثة : لكني لم أسمع كلاما قط أكره لنفسي ، وأبغض الي مما سمعته ٠ قال : ولم ؟ قال : ويحك يا كعب ! انما سودني قومي حين ذهب خيارهم وأماثلهم ، فاحفظ عني هذا البيت :

خلت الديار فسدت غير مسود

ومن الشقاء تفردي بالسودد

ثم اني رأيت الأخ الفاضل ، بعد أن قطع عنقي بثنائه ، كما جاء في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أثنى عنده رجل على رجل فقال له رسول الله ، بأبي هو وأمي : قطعت عنق صاحبك! قطعت عنق صاحبك ! قالها مرارا ثم قال : من كان منكم مادحا أخاه لا محالة ، فليقل : «أحسب فلانا ، والله حسيبه ، ولا أزكي على الله أحدا ، أحسبه كذا وكذا » ، وان كان يعلم ذلك منه = رأيت أخي محمد عودة يقول في آخر كلمته : « واذا كانت القوس العذراء قد أسعدتنا ، الا أن بعض ما يكتب صديقنا العزيز الآن ، يترك في نفوسنا « حزازا من الوجد حامزا » ، وذلك مثل هجومه على الثقافة الغربية ، وكأنها فقط كتـــابات المبشرين المعادين للاســلام والعرب ، ومثل مساجلته مع « لويس عوض » التي توقعنا أن تكون اثراء للبحث والادب ، فانقلبت الى مهاجمة يستغلها البعض ، وكنا نجل الاستاذ الجليل عنها » ٠

ولا أدري من أي أمريه أعجب ؟ من قطعه ظهري بالثناء والاطراء ، أم من اتهامه اياي بالجهل والسخف والعبث واختلال العقل ، حتى صرت عنده ، صورة من « أجاكس عوض » عندي ! فهل يعتقد الاستاذ الصديق أني أهاجم الثقافة الغربية ، لأني لا أتمثل هذه الثقافة الا من كتابات المبشرين المعادين للاسلام والعرب ؟ هل يتصور حقـــا أني لا أعلم شيئا عن الثقـافة الغربية ، وكل ما أعلمه عنها هو ما يكتبه المبشرون ! هل يتفضل الصديق باطلاعي على شيء من كلامي يتضمن هذا المعنى السخيف ؟ واذا شاء الصديق أن أصرح له بعبارتي أنا ، لا بعبارته هو ، فاني أقول له بملء فمي : نعم ! أنا عدو للثقـــافة الغربية ، ولا أستطيع أن أكف عن مهاجمتها ، لا لانها معـادية للاسلام والعرب ، بل لشيء آخر غير الذي تتـــوهم ٠ وقد كنت بينت بعض ذلك في مقالاتي ، ولكنك أغفلت أن تلقي اليه بالا اذا كنت قد قرأته ، أو قرأته وأغفلت أن تعرف أسبابه ٠ وبالطبـع ، أنا أعلم أنـــك أذكى من أن تخلط بين «العلم» الذي هو تراث انساني ، وان كان ربمـــا زيف المزيفون فأدخلوا في مفهوم « العلم » ، شيئا ليس منه ، وبين « الثقافة » التي يزعم رجل مثل اليوت في تحديده لمعناها : أن ثقافة الشعب ، ودين الشعب ، مظهران مختلفان لشيء واحد ، لان الثقافة في جوهرها تجسيد لدين الشعب ، ويزعم أن السير الى الايمان الديني عن طريق الاجتذاب الثقـافي ، ظاهرة طبيعية مقبولة ٠ وسواء أصاب اليوت كل الاصـــابة ، أو خلط في ادراك هـذا المعنى بعض الخلط ، فان جوهر رأيه سليم ظاهر السلامة ، عند من خالفـه في مذهبه ومن وافقـه ٠ وقد نقلت في مقالاتي عن توينبي وغيره أقوالا متشابهة لما يقوله اليوت ، لا لاني أحب أن أستظهر على صواب رأيي بأقوال هذه الأعاجم ، بل لاني أرى بعض النـاس أسرع استجابة للأعاجم ، فأحببت أن أضع طرفا من ذلك بين أيديهم ، الزاما لهم بالحجـة التي يخرون عليها صما وعميانا !

فاذا كان الأخ الاستاذ يعنى بالثقـــافة فى هذا الموضع ، ما يكثر البحث فيه ، ويطول اللجاج فى معرفة حده ورسمه ، فى لغات هذه الأعاجم ، وفى لغتنا أيضا أحيانا، فذاك • وان كان يعنى باستعماله لفظ «الثقافة» ، ما يستعمله العامة عندنا من قولهم للشاب الذى دخل مدرسة ، فقضى بضعة أعوام ، فتعلم القراءة والكتابة ، وشدا شــيئا من العلوم والمعارف : هو شاب «مثقف» ، فذاك شىء آخر! وان كان يعنى بها ما يعنيه ضرب آخر من العامة ، من قولهم للرجل الذى يقرأ بضعة كتب بلغة أجنبية ، ويكتب أحيانا مقالات أو كتبا ، يترجمها من اللسان الذى تعلمه ترجمة رديئة قبيـــحة فاسدة ، مثل «أجاكس عوض ، وسلامة موسى» ، وأشباههما على اختلاف دلالات الاسماء!! فذاك شىء ثالث! وهلم جرا•

ولكنى أحسن الظن بعقل الاستاذ محمد عودة ، لانى أعرفه معرفة جيدة، فمن أجل ذلك عجبت كيف غاب عنه هـــذا كله ؟ وكيف غاب عنـــه أنى بطبيعة نشأتى فى هذه العربية الشريفة ، وفى سرارة هذا الدين الذى لا يقبل الله من عباده سواه ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ، لا من عامى ولا من متعلم ، ولا من مفكر ، ولا من عالم ولا من نبى من الانبياء ، كيف غاب عنه أنى بطبيعة ذلك عدو للثقافة الغربية ، لانها نابتة ، فى مدارج نموها ،فى بيئة وثنية مسيحية، أنكر عقائدها وأرفضها واعتقد بطلانها كل البطلان، لمخالفتها للذى طالبنا به ربنا وخالقنا ، والمنعم علينا بآلائه ونعمه من عقل وبيان • واذا أنا داهنت فى ذلك أقل مداهنة ، فانى على يقين من عذاب الله الذى لا يغنى عنى فى دفعه ثناء صديقى الاستاذ عودة ، ولا اعجابه ، ولا مودته • فان الله يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم : « **ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين• فلاتطع المكذبين• ودوا لو تدهن فيدهنون** » ، فاذا فعلت ، فانى رهين بعذاب بئيس •

وخير للاستاذ عودة أن يتناول اى كتاب من كتب «الثقافة الغربية» التى تتناول هذا الامر بالبحث ، ليعلم أن «الثقافة الغربية» ، بهذا المعنى ، هى الحقيقة التى لايختلف عليها أحد من كتاب الغرب وفلاسفتهم ومفكريهم • فاذا فعل ذلك ، فهو خليق أن يعلم أنى اذا فعلت غير ذلك ، خنت أمانة دينى ، وخنت أمانة عقل ، لان هذا الدين جاء يعلم «**العقل**» اولا ، اى حسن التفكير ، وحسن النظر، قبل ان يطالب الناس باقامة الصلاة ، وايتـــاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع اليه ســـبيلا • ولو أراد الاستاذ الفاضل أن يجعلنى أفهم معنى «الثقافة» ، على المعنى الذى تقوله العامة ، أو الذى يقـــول به ذيول اجاكس عـــوض ، صبى المبشرين ، فانا غير مطيق له فى الجد ، اذا كان الامر أمر جد لا هزل فيه • وهذا كاف ان شاء الله ، ثقة منى بذكاء عودة واخلاصه فى الفهم •

واما اتهامه اياى ، فانى قد غصت فى الوحل الى اذنى ، أعنى اتهامه اياى بأنى « أســـاجل أجاكس عوض » ، فهذا أعجب العجب ، فانا لا أساجل شيئا كهذا ، وهو أيضا استعمال للفظ فى غير موضعه ، فاصل « المساجلة » ، أن يستقى ساقيان من بئر ، فيخرج كل واحد منهما فى سجله (أى دلوه) مثل ما يخرج الآخر ، فأيهما نكل فقد غلب • فاذا قيل فى مجاز اللغة : « فلان يساجل فلانا » ، فمعناه أنه يخرج من الشرف مثل ما يخرجه الآخر ، فايهما نكل فقد غلب ، ومثل ذلك يقـــال فى الجدال بالحجج والبراهين • فهل ترى شيئا من ذلك كان بينى وبين هذا الآدمى ؟ أظن لا • فاذ لم يكن ففيم استعملته اذن ، وما كتبته دال على أنى انما عمدت الى كشف اللثـــام عن خبيئة فساد ، متمثلة فى كـــلام وفى شخص، أى فى «مادة» وفى «صورة» !! أليس كذلك؟ أم تراك نسيت •

وأما اتهامك أن مازعمته « مساجلة » قد انقلب « مهاجمة » ، فهو أيضـــا من وضع الألفـــاظ فى غير مواضعها ، فمثلك لا يمكن أن يجهل أن الطريق الذى سلكته ، والذى أبنت عنه مرارا فى ابتداء مقالاتى ، وفى الرد على زميلى القـــديم محمد مندور ، غفر الله له ، وفى غير ذلك من المواضع ، يقطع بمـــا لا شبهة فيه أنى أعالج رسم « صورة » صحيحة لآدمى أنت أول من يعلم مقدار ماينطوى عليه من فساد التركيب، أم ترانى أخطأت فى تقدير ما أعرفك تعرفه ؟ ويقطع أيضا بأن « المهاجمة » ليست لى بغرض ، بل الغرض هو **الدفاع عن كيان امة برمتها ، أنت أحد رجالها** ، بهتك هذه الاستار المسدلة التى عمل من ورائها رجال من قبل ، ولايزال رجال يعملون من ورائها، اختارتهم « الثقافة الغربية » بالمفهوم الذى دللت عليه ، أعنى

الثقافة الغربية الوثنية المسيحية ، ليحققوا لهذه الثقافة غلبة على عقولنا ، وعلى مجتمعنا ، وعلى حياتنا ، وعلى ثقافتنا ، وبهذه الغلبة ، يتم انهيار الكيان العظيم الذى بناه آباؤنا فى قرون متطاولة ، وصححوا به فساد الحياة البشرية فى نواحيها الانسانية والأدبية والأخلاقية والعلمية والفكرية ، وردوها الى طريق مستقيم ، علم ذلك من علمه ، وجهله من جهله ! ولا يفوت مثلك أن يعلم أن هذه الغلبة ، لايراد بها الهدى للناس ، كما يوهم هؤلاء الأغرار من يتبعهم من الأغرار ، بل يراد بها تحطيم شىء هو فى طريقه الى الظهور فى الأرض مرة أخرى • وهذا ، كما تعلم ، هو فى جوهره عمل سياسى محض • فمن أجل ذلك ، انبريت ، بعد عزلتى ، لهذه الدمى ، لأهتك عنها أستارها ! وهذا حسبك ، وكيف يجهل مثلك مثل هذا فى جلائه ووضوحه • وقد ساءنى أنى اضطررت الى أن أجزى فضلك على ، برد كلام لك لم أره يليق بفضلك • ولكن هذا عذرى ، فان قبلته فقد أحسنت الى ، وان أبيته فلك العتبى حتى ترضى •

وما دام الأمر قد جرنى الى ذكر الألفاظ ووضعها فى غير مواضعها ، واستفساد معانيها بفساد المقاصد التى تكمن من ورائها ، فقد بدا لى أن أعود الى لفظ سلف فى مقالتى الماضية ، وهو اللفظ الذى استخدمه « أجاكس عوض » ، واستخدمه المسمى سامى داود ، وكلاهما يضمر فى هذا اللفظ معنى بعينه ، اذ جعل العموم تورية عن الخصوص ، وكلاهما سىء المقصد فى هذه التورية ، لأنه يريد أن يشفى غليل صدره من شىء ، وان ساق كلامه مساق ثور اغريقى محارب ، أو مساق مؤرخ وديع يكتب ذكرى ساداته ، فبقى منها شفافة الفت ظلها الكثيب على بعض كلامه !! ونفس الانسان وعاء للخير والشر ، ولكنه يستطيع بالعقل الورع ، الذى نسميه نحن المسلمين « الدين » ، أن يصرع شيطان شره بالتقوى • بيد أن هذا الأمر قلما يحسنه الا من ألف تسبيح الله وتحميده وتنزيهه ، واسلام وجهه اليه ، منيبا اليه ضارعا ، مستعينا به مخلصا ، وعندئذ يعلم أن أسوأ الخلق ارتكاب التورية طلبا لشفاء الغليل ، فانه عندئذ يكون غشاشا مخادعا لئيم الطباع •

وهذا اللفظ الذى أشرت اليه • هو لفظ « الرجعية » ، فكلاهما استخدمه ، وأحدهما شرحه شرحا فيه مغالطة ظاهرة ، لا تنفى ولا تثبت ، والآخر تركه غفلا بلا شرح ، ولكنه ظاهر الدلالة ، لمن عرف الحادثة التى رواها هذا المؤرخ المحتجن من أخبار التاريخ ما فيه بيان واضح ، لينقله الى الناس مظلما غامضا غير مفهوم وحسبك بهذا سوءا ومنقصة وخيانة للأمانة • ولكيلا أدع لأحد على سبيلا ، ينبغى أن أؤرخ لهذا اللفظ كيف أتى ؟ ومن أين ؟ وما معناه ؟ لأن هذه الألفاظ المبهمة التى لا يجد لها الانسان حدا ، شديدة الضرر ، ولكن يؤسفنى أن أكثر الذين يلجأون اليها ، انما هم القوم الذين يدعون « الثقافة » ، ويدعون « الاتجاه العلمى » ، ويدعون « الدقة العلمية » ، ويدعون « المنهج » ، ويدعون ما شئت من الزيف الذى لا حدود له • فانت اذا شئت أن تستقصى معنى « الرجعية » فى كلام من يتكلمون ويهضبون ويثرثرون ، وقعت فى مثل « ردغة الخبال » ، من الحيرة فى فهم المراد منها ، (وردغة الخبال : الطين والوحل الكثيف • وهو يوم القيامة : عصارة أهل النار التى تنحل عنها جلودهم) •

وقد رأيته من الخير أن أتتبع تاريخ هذه اللفظة ، بقدر ما تحتمله ذاكرتى • وقد كنت خليقا ، أو كانت هذه الأمة خليقة ، أن تعمد الى هذه الألفاظ المستحدثة ، فتعرف تاريخ مجيئها الى استعمال أهل اللسان ، ومن أول من استعملها ؟ ولم استعملها ؟ وفى أى غرض كانت تقال ؟ وأى زيادة لحقت معناها الأول ؟ وذلك لا يتم الا بتتبع الصحف والكتب ، واستخراج المواضع التى ذكرت فيها مؤرخة • واذا فعلنا ذلك عرفنا مصادر هذا اللفظ ، وحددنا معانيه فى زمن بعد زمن ، وأدركنا أثر استعماله فى تجلية المعانى ، أو زيادتها غموضا وفسادا • ولكن هذا شىء لا أستطيع بيانه فى أسطر قلائل ، فمن الخير أن أنصرف عنه الى ما أريد •

« **والرجعية** » لفظ يألفه الناس اليوم ، على غموضه المتلف للفهم ، المؤدى الى اختلاط الادراك ، الممهد لكل ذى هوى أن يبلغ الى هواه باستعماله ، لأنه يحمل معنى من معانى الفساد فى مفهومه الغامض • ولكنى شهدت مولده قديما • فمن المفيد أن أسجل بعض تاريخه بلا تحيز ، حتى يتحرى القارىء لنفسه ما قرأه ، ويتجنبه الكاتب الذى يريد الافهام دون الابهام •

كنا يومئذ فى زمان صراع ، وذلك منذ نحو من

خمسين سنة ، نشأت طفلا فى صراع ثقافى ، وصراع اجتماعى ، وصراع فكرى ، وصراع دينى ، وصراع سياسى • وكان لكل صراع طابعه والفاظه وكتابه وجماهيره ، قلت او كثرت • وتمادت بى الأيام حتى عقلت ، وذلك فى مطلع الثورة التى شملت مصر والسودان فى سنة ١٩١٩ • واظن انه قد بقى فى ذاكرتى شىء من الألفاظ التى كانت تدور فى هذا الصراع الضخم ، ولكنى لا أجد بينها لفظ «الرجعية» ولا أعيه كان ظاهرا يومئذ ، أى فى سنة ١٩١٩ او ماقبلها ، الا ان يكون شيئا نادرا لا يكاد يستقيم أو يستبين ، او لا يكاد يستقيم او يستبين لى انا على الأقل• ولكنى اذكر ان اكبر صراع كان قائما يومئذ بين أهل هذا الدين ، أعنى الاسلام ، كان يستخدم لفظا اشتقه الكتاب ، او أتوا به على النسبة الى « السلف » ، فكانت طائفة كبيرة تسمى نفسها « السلفيون » ، وهو لفظ يراد به رجوع أصحابه الى سيرة «السلف» من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن تبعهم على الحق فى العقيدة، وفى تجريد الايمان من شوائب الشرك ، وفى العمل بالسنة ، وفى احياء منهج « السلف » فى الرجوع الى الكتاب والسنة دون سواهما • وكان للسلفيين ظهور وغلبة فى فترة من الفترات ، وكان اكثرهم من أهل الحمية والجد والثبات والاخلاص فى القول والعمل • وان شابهم من ينتسب اليهم ، ويدعى دعواهم ، ولكنه لا يقوم مقامهم ، ولا يلتزم التزامهم، بل ربما خالفهم، واقام على البدع وسوغها وجعلها من سنة السلف •

وعاصر هذا الصراع صراع آخر بين الحضارة الغازية ، وهى الحضارة الأوربية المسيحية الوثنية ، وبين بقايا الحضارة الاسلامية العربية المتمثلة فى السلفيين ، وأهل البدع ، وأهل الأهواء من كل لون ونحلة • وكان هذا الصراع قائما فى الميادين كلها ، فى الميادين الاجتماعية ، والفكرية والثقافية ، والدينية ، والسياسة جميعا • وكان محرك هذا الصراع ، هو الغازى المحتل بمدارسه وفرائضه التى فرضها علينا فى مجتمعنا برمته ، أعنى أنه كان يستخدم وسائله السياسية الظاهرة ، وهى هيئة الاستعمار ، ووسائله الخفية ، وهى هيئات التبشير، بالمعنى الذى شرحته مرات ، ودللت على أنه ليس أمرا دينيا ، بل كانت وسائله الثقافية والسياسية هى الغالبة عليه ، لأنهم وجدوا أن « الثقافة » التى ينتسبون اليها، تابعة من الكنيسة فى جميع أطوارها، وممثلة للدين المسيحى ، وللوثنية التى تسربت فى خلاله على طول القرون ، فالالحاح على نشرها نشرا منظما عميقا، نشر لخلاصة المسيحية الأوربيةالوثنية، بلا تحد كتحدى الدعوة الى « الدين » صراحة وبلا مواربة • وهذه الخطة نفسها ، هى من نتاج النظام الكنسى الذى عاشته الحضارة الاوربية فى جميع اطوارها السالفة • واذا كنت تنسى ، كما ينسى الاستاذ عودة ، فأذكرك بقول اليوت الذى اشرت اليه آنفا فى تفسير لفظ « الثقافة » • وزعمه ان ثقافة الشعب ، ودين الشعب ، مظهران مختلفان لشىء واحد وانها تجسيد لهذا الدين ، وان من الممكن ان تجتذب قوما الى ايمان دينى بعينه ، بوساطة نشر الثقافة التى تجسد هذا الدين وهذا هو «التبشير الثقافى» ، فلا تخطئه ولا تنسه ولا تغفله •

وكان هذا الصراع من اخطر الوان الصراع التى عشناها ، ولانزال نعيشها ، والذى من أجله نكتب مانكتب الى يوم الناس هذا ، وجاء خطره من أشياء كثيرة لا استطيع ان اعددها فى مثل هذه الكلمة ، ولكن اخطر هذه الاشياء أن جمهرة كبيرة من «المثقفين» ، أى الذين ارتضعوا شيئا قل أو كثر من لبان «الثقافة الاوربية المسيحية الوثنية» ، كانوا من جلدة هذا الشعب ، مسلمه ونصرانيه ، فمن هذه « الجلدة » التى تربطهم بالناس ، كان لهم من الاقدام على التكلم والابانة والدعوة ، ماليس يملك مثله من جاء من « جلدة » أخرى ، كالجلدة الاوربية المسيحية الوثنية ، ولهم من التأثير على اهل جلدتهم ولسانهم ، ماليس يملكه من لم يكن من اهل جلدتنا ولساننا •

فنشأ من بين هذا الصراع بين الحضارة الغازية وبقايا الحضارة الاسلامية العربية التى ذكرتهما ، جيل دخل فى الصراع الدينى ، بين السلفيين ، ومن ناوأهم من أهل البدع والاهواء ، ولكنه تكلم فى الشئون التى هى عند المسلمين «دين» بلسان آخر غير لسان اهل هذا الدين من سلفيين ومبتدعة . وادرك الذين كانوا يقودون حركة الصراع بين الحضارتين أن أقوى الفريقين المتصارعين من سلفيين ومبتدعة ، هو فريق « السلفيين » ، لا من حيث كثرتهم وغلبتهم ، بل من حيث القوة التى

تشتمل عليها دعوتهم ، لانها تؤدى الى اعادة بناء لغة الامة ، اذ لامعنى للانتساب الى طريقة «السلف» الا بأن يتملك السلفى ناصية اللغة وآدابها تملكا يمكنه من الاستمداد المباشر من « **القرآن» و«السنة»** على نفس النهج الذى كان « السلف » يستمدون به من القرآن والسنة ، فى آدابهم ، وأخلاقهم ، وثقافتهم ، وفقههم وعلمهم ، وتفكيرهم ، وفى سائر مايكون به الانسان حيا رشيدا قادرا على بناء الحضارة • ولانها تؤدى أيضا الى اتخاذ سمت نابع من القرآن والسنة ، يكون به حضارة الكتاب والسنة ممثلة فى رجال يغدون بين الناس ويروحون ويغضبون ، ويرضون ، ويتنازعون ويصطلحون، ويعيشون عيشة كاملة ممثلة لخلاصة الرحلة الطويلة العميقة فى استنباط طريق للحياة الانسانية الصحيحة من الفطرة التى جعلها الله كامنة فى الطبيعة البشرية ، ومطوية فى هذا التنزيل المعجز الذى جاء من عند الله ، وهو القرآن ، وفى جوامع الكلم التى أوتيها نبى الله صلى الله عليه وسلم ، مبينا عن كتاب الله ومفصلا لجمله • وهذه الفطرة هى التى ذكرها الله سبحانه فى سورة الروم فقال: «**فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن اكثر الناس لايعلمون»** •

فهذه القوة التى اشتملت عليها دعوة «السلفيين» كانت مصدرا لمخاوف « الاستعمار » و « التبشير »، فأرادوا أن يقاوموا هذه الدعوة القليل عدد أصحابها والذين هم مع قلتهم يصارعون جمهورا غالبا من «المبتدعة» ، يؤيدهم ألف العامة ، وهم الكثرة ، لما عندهم من «البدع» المنكرة التى ينكرها «السلفيون» أشد الانكار • فعمدوا الى بث فكرة قريبة الى النفوس ، سريعة اليها تؤيدها جميع الظواهر ، وهى أن « السلفيون » قوم متشددون يريدون أن يرهقوا الناس بمالا طاقة لهم به من التكاليف • وهذه المهارة فى ادراك الوسائل التى تقاوم بها الافكار ، كانت معروفة مدروسة فى دوائر «الاستعمار» و «التبشير»، وان كان كثير منا لايزال غافلا عنها ، غير قادر على ادراك المحيط الذى تستعمل فيه هذه الوسائل ، وذلك لما طبعنا عليه المستعمرون والمبشرون من التهاون والغفلة وقلة الصبر على جلاد الفكر ومعاناته والتغلغل به الى غاياته البعيدة المغرقة فى البعد .

فمن معسكر الصراع بين الحضارة الغازية ، وبين الحضارة الاسلامية أو بقاياها يومئذ ، ظهرت كلمة «السلفيين» مقرونة بتبغيضها الى العامة ، وتصويرها فى صور منكرة تكرهها النفوس ، لانها تشق عليها . ثم بدأت الكلمة تدخل فى محيط الصراع الاجتماعى ، فمن أول ماأذكر من ذلك أن التالف الكريه المسمى سلامة موسى ، صنيعة المبشر «ويلككس»، كان أكثر الناس استعمالا للفظ «السلفيين» للدلالة على التأخر والتشدد والتخلف ، فى مقابل الدعوة التى أرسله يعوى بها من اصطنعوه • وليس هذا بموضع تفصيل ذلك ، وانما أردت التاريخ وحده • وأظن انى قرأت له ولغيره من شيعته ،وكان زمانه كزماننا الذى فيه « أجاكس عوض » وشيعته من صبيان المبشرين ، مقالات كان يستخدم فيها هذا اللفظ بهذا المعنى فى نحو سنة ١٩٢٢ أو ١٩٢٣ بعد دخول ثورة سنة ١٩١٩ فى انهيارها وانفصالها عن حقيقة الشعب الذى أشعل نارها ، ثم أحرق هو بنارها ونار المستولين عليها غدرا وغشا بلاسابقة شريفة فى الصراع السياسى .

ولكن هذه اللفظة كانت شديدة على الألسنة ، لا تلين بها كل اللين ، فبعد قليل ولا أدرى كيف كان ذلك ، لأن الامر يعتمد على التتبع التاريخى للعبارات يوما يوما وشهرا شهرا كما أسلفت = بعد قليل رأينا لفظ «**الرجعيين**» يحل محل «**السلفيين**» فجأة ، وهو لفظ سهل على لسان العامة وغير العامة ، واذا بنا نراه مستعملا على ألسنة ضرب من الكتاب أمثال التالف « سلامة موسى » من صبيان « التبشير » وسفهائه الذين يتافهون عنه ، وعلى ألسنة أصحاب الصحف من نصارى لبنان المقيمين فى مصر ، والمستولين على صحافتها كلها يومئذ • ثم لم تلبث الا قليلا حتى رأينا هذا اللفظ ينتقل للدلالة على الحياة الاسلامية كلها ، واشتق له مصدر هو « الرجعية » ، يستعمله الكتاب اذا أرادوا التورية عن « **الاسلام** » ، تهربا من أن تنالهم تهمة الطعن فى دين الدولة . واستشرى الأمر زمانا طويلا ، فصار كل من أنكر شيئا على هذه الحضارة الاوربية المسيحية الوثنية ، المقترنة بالغزو العسكرى والغزو السياسى لبلادنا ، من أخلاق ، أو فكر ، أو عادة ،

أو طريقة للحياة (كما يقول توينبى) ، صار ينبز بانه « **رجعى** » . **وظل هذا هـو معنى « رجعى »** الى نحو من سـنة ١٩٤٣ ، حين بدأت الحركة الشيوعية فى الظهور ، فاستخدمت اللفظ للدلالة على الأنظمة التى كانت تقـاومها ، لما فيها من الفساد والتعفن ، وان كان اللفظ عندهم أيضا كان دالا على مثل ما كان يدل عليـه عنـد اعوان الاستعمار والتبشير بالحضارة المسيحية الوثنية الغربية .

❊ ❊ ❊

ثم اتخذ اللفظ معانى كثيرة لبـسها ، ولكن بقى المعنى « الأول » الدال على « الاسلام » عن طريق التورية فرارا من طائلة العقوبة ، هو الذى يستعمله ويدلس به أمثال المسمى « **سامى داود** » والمسمى « **اجاكس عوض** » ، تمويها على الناس ، فى خلال استعمال الناس له بمعنى الفساد الذى شـمل حياة الأمة فى الميدان السياسى والاقتصـادى . وبهذا التمويه القبيح ، يريد أمثال هؤلاء التالفين، ان يشفوا غل صدورهم ، ببذاءة مغلفة فى لفظ مبهم ، بعـد أن خلعوا المسوح التى ألبسـهم اياها الجاسـوس البريطانى المحترف « كريسـتوفر سكيف » ، و «جماعة اخوان الحرية» ، والتحفوا بمسوح جديدة اتخذوها لأنفسهم ، بعد طول التـدريب ، من شعارات ظاهرة معروفة يسـتترون وراءها ، بلا عقيـدة، وبلا مبالاة ، بل ليتمـكنوا من العمل على احـراق « **طروادة الجديدة** » ، وهى مصر العربية الاسلامية بعد سنة ١٩٥٢ ، وتدميرها كما دمرت « طروادة » فى القديم .

فمن ظن انى آخـذ هؤلاء الدعاة ، منذ كتبت عن مسـالة « العامية » و « الفصحى » فى اوائل مقالاتى، لكىاجرحهم أو انقدهم نقدا « شخصيا » فقد اخطا . ومن ظن ان الأمر مقصور على هذه الفئة باسمائها الظاهرة ، فقد اخطا ، لأنى لا افرق بين رجال هذه « النحلة الجديدة » ، وان اختلفت دلالات هذه الأسماء على انسابها وصلاتها وعلاقتها بالحياة العربية التى نحن اليـوم فى شرارتها وفى حومتها الكبرى . ومن ظن انى سـاقف عنـد « اجاكس عوض » واشـباهه حين أعرض مرة اخرى لتمام القول فى « العامية» و « الفصحى» ، ولأثر الدعاة اليهـا فى حياتنا السياسية والأدبيـة منذ نشأت هذه الدعوة ، فقد اخطا . وانما شغلنى كما ذكرت فى مقالات مختلفة ، كثرة الدروب التى تنشق على جانبى الطريق الأعظم ، ومن يكمن فى هذه الدروب من الأفاعى والحيـات ، التى نشأت فى سراديب « **التبشير** » و « **الاستعمار** » . ولا أظن القارىء ، مهما طال بى التعـريج على بعض الدروب ، ينسى انى قد خرجت به فى رحلة ، فى متاهة ، الى آفاق بعيدة ، فان شقت عليه الرحلة فليقف وقد هلك ، وان أطاق فليمض وقد نجا . أما التهاون والغفلة والاسـتخفاف ، فذلك هو الموت الوحى ، والبـلاء الماحق ، والحالقة حالقة الدين لا حالقة الشعر .

« **محمود محمد شاكر** »

كلمات فى كلمات

بحوث لغوية تاريخية

بقلم : حامد عبد القادر

٣٥ ـ في التيه

الذي يتبادر الى الذهن أن الفعل «تاه» ، ومضارعه « يتيه » ، ومصدره تيه يفيد في اللغة العربية أحد معنيين الأول : ضل وتحير ، يقال : تاه في الأرض أى عميت عليه المسالك والسبل فلم يعرف الاتجاه الصحيح ، والآخر : تكبر ، يقال : تاه علينا اى تجبر .

وليس من البعيد أن يفيد هذا الفعل معنى ثالثا هو : مات وانحلت أعضاؤه ، واختلطت بأديم الأرض فضلت فيه . وقد يؤيد هذا المعنى قوله تعالى : « وقالوا أئذا ضللنا في الأرض أئنا لفي خلق جديد » ١٠/السجدة . فقد قيل في تفسير قوله تعالى : أئذا ضللنا في الأرض أئذا تاهت أجزاء أجسامنا فيها بعد الموت .

فهذه ثلاثة معان للفعل تاه ، ويتبع ذلك أن يكون لكلمة تيه هذه المعانى الثلاثة ، على أساس أنه مصدر للفعل تاه .

وللتيه معنى اسمى هو : المفازة لا علامة فيها يهتدى بها ، ومن الجائز ـ والله أعلم ـ أن يفسر الفعل « يتيهون » في الآية الكريمة باحد هذه المعانى ، فيكون معناه أن هؤلاء العصاة سيظلون أربعين سنة ضالين في الأرض حائرين ، أو أنهم سيظلون يستكبرون في الأرض ويتذمرون هذه السنين الطوال الى أن يحكم الله فيهم . وقد حدث ذلك بحسب ما ورد في التوراة ، ذلك أنهم لما أخبرهم موسى عليه السلام أن تمردهم وعصيانهم قد أدى الى غضب الله عليهم ، وحرمانهم أن يدخلوا الارض المقدسة أخذتهم العزة بالاثم ، ولم يأبهوا بقول الرسول بل تظاهروا بالتوبة ، وحاولوا أن يدخلوا الارض المقدسة عنوة متحدين حكم الله ، ولكن أهلها صدوهم وهزموهم شر هزيمة (عدد ١٤ : ٣٩ ـ ٤٥) .

هذان هما المعنيان اللذان يتبادران الى الذهن . أما المعنى الثالث فلست أرى مايمنع من ارادته ، فيكون المقصود ـ والله أعلم ـ أن هؤلاء العصاة المتمردين سيقضى عليهم فيموتون ، وتنحل أجسامهم ، وتتفتت أعضاؤهم ، ثم تختلط بأديم الأرض ، وبعد مرور أربعين سنة تفنى أجسامهم ، ولا يبقى لهم وجود منفصل عن الارض .

وفي التوراة مايفيد هذا المعنى ، ذلك أنهم لما طغوا وبغوا ، وعصوا رسول الله موسى عليه السلام ، وندموا على خروجهم من مصر ، ثم اقامتهم بأرض مجدبة ، وقالوا : « ليتنا متنا في هذا القفر ، ولماذا أتى بنا الرب الى هذه الأرض لنسقط بالسيف ، وتصير نساؤنا وأطفالنا غنيمة ؟ » أقول : لما قالوا ما قالوا ، وفعلوا ما فعلوا مما أغضب الله ورسوله أوحى الله تعالى الى رسوله موسى عليه السلام أنه معاقب هؤلاء العصاة المردة على جحودهم وتمردهم ، فسوف يهلك منهم كل من بلغ العشرين أو أكثر ، وسوف تسقط جثثهم ، وتظل في القفر أربعين سنة حتى تفنى ، ويحل

بحلهم أطفالهم ، فيكونون رعاة في القفر تلك المدة ، ينشأ منهم جيل جديد مكافح هو الذى سيجاهد حتى يدخل الارض المقدسة .

وقد حل بهم قضـــاء الله ، وتحقق وعيـده ، تسقطوا صرعى ، ولم ينج من كبارهـــم الا يوشع بن نون وكالب بن يفنه (عدد ١٤ : ٢٦ ـ ٣٨) ويوشع بن نون وكالب بن يفنة هما ـ والله أعلم ـ المشار اليهما في قوله تعالى : « قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهم ادخلوا عليهم الباب فاذا دخلتموه فانكم غالبون ، وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين » المائدة : ٢٣ .

أرأيت بعد هذا كيف أن قوله تعالى : « اربعين سنة يتيهون في الارض » يفيد هذه المعـــانى كلها في ايجاز معجز ! وصدق الله تعالى حيث يقول : « وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه » المائدة : ٢٨ . فالكتاب المنزل هو القرآن الكريم وهو مصدق لما سبقه من الكتب السماوية ومهيمن عليها ، فسبحان من هذا كلامه .

٣٦ ـ شعب الله المختار يشرك بالله

لحق موسى عليه السلام بالرفيق الاعلى بعد أخيه هارون عليه السلام بنحو أحد عشر شهرا ، وكانت سنه اذ ذاك عشرين ومائة سنة ، وقيل ان وفاته كانت في عهد منوجهر ملك ايران القديمة .

وخلف من بعـــد موسى في رعاية شؤون بنى اسرائيـل طـــائفة من الحكام أطلق عليهم اسم « القضاة » . ولم يكن هؤلاء ملوكا ، وانما كانوا من شيوخ القبائل الذين أوتوا نصيبا من الكياسة والمعرفة .

وكان أول خليفة لموسى عليه السلام :

يوشع بن نون

ويوشع هو بالعبريه יהושע ، وهو علم مركب من كلمتين الأولى يهو بمعنى الرب ، والثانية شوع بمعنى معين ، فهو مركب اسنادى ، وقد عرب فجعل يوشع . ويرجع نسب يوشع هذا الى أفرايم ابن يوسف عليه السلام .

وكان عدد القضاة ثمانية عشر امتد حكمهم نحو أربعـــين ومائة سنة أى من سـنة ١١٨٠ ق . م الى سنة ١٠٤٠ ق . م تقريبا ـ على خلاف في ذلك .

وكان من هؤلاء القضاة امرأة اسمها دبورا ، ورجل صـــلب قـــوى اسمه شمشـــون الذى يوصف بأنه الجبار . وقد دبر شمشون هذا شئون بنى اسرائيل نحو عشرين سنة ، غلب بعدها على أمره ، فأسره الفلسطينيون ، وأدخلوه معبـدهم ، وكانت به أعمدة ، فأمسك بها شمشون وحركهـــا واحدا بعد آخر ، فانهدم المعبد ، فقتل شمشون وقتل من كان به من أهل فلسطين .

وكانت أحوال بنى اسرائيل في عهد القضـــاة في اضطراب وفوضى ، وكانوا في حرب دائمة بينهم وبين من جاورهم من الشعوب ، فكانوا تارة يغيرون فيغلبون ، وأخرى يغار عليهم فيهزمون . وكانوا في عقائدهم الدينية أشد اضطرابا ، فكثيرا ما كانوا يكفرون بالوحدانية ، ويتخذون من دون الله آلهـة أخرى .

لقد فعلوا الشر « وتركوا الرب الاه آبائهم الذى أخرجهم من أرض مصر ، وساروا وراء آلهة أخرى من آلهة الشعوب الذين حولهم وسجدوا لها وأغاظوا الرب ، تركوا الرب وعبدوا البعل » قضاة ٢ : ١١ـ ١٣) والبعل اسم أحد الآلهة التى كان يعبدهـــا الكنعانيون .

وكان هذا ديدنهم فاشتد غضب الله عليهم . وكلما ظهر من بينهم قاض يحكمهم كان الله معه ومعهم ، وناصرا له ولهم رأفة بهم . « وبعد موت القـــاضى كانوا يرجعون ويفسدون أكثر من آبائهم بالذهاب وراء آلهة أخرى ليعبدوها ويسجدوا لها . لم يكفوا عن أفعالهم وطريقتهم القاسية فحمى غضب الرب على اسرائيل ، وقال . من أجل أن هذا الشعب قد نقضوا عهدى الذى أوصيت به آباءهم ، ولم يسمعوا لصوتى ، فأنا أيضا لا أعود أطرد انسانا من أمامهم من الأمم التى تركها يوشع عند موته » (قضاة : ٢ ١٨ ـ ٢١) .

ونقرأ سفر القضاة فنعرف أن هذا الكفر يتكرر حينا بعد حين ، ومن ثم يجدر بنا أن نطلق على سفر القضاة اسم « سفر المخازى » ، كما يجدر بنا أن نطبعه ، ونوزعه في آلاف من النسخ نقدمها هدية للصهاينة وأوليائهم الذين أعمى الله بصائرهم ، وأضلهم عن السبيل ، فلم يعـودوا لكلمة الحق والعدل ، وانما يصغون لكلمة المدفع والدولار . ألا ساء ما يعملون . وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

٢٧ ـ شعب الله المختار يصاهر الشعوب الوثنية

وذلك امر عجيب ، يسطره التاريخ فى غرابة وعجب .

اصغ باذنيك ايها العالم الذى يوصف بانه « العالم الحر » ، وسجل فى سجلك أيها التاريخ فى هذا العصر الذى يوصف بانه عصر النور وعصر حرية الشعوب ، لقد أتى على « شعب الله المختار » حين من الدهر نزل فيه من عليائه ، وتنازل عن غطرسته وكبريائه ، وانحدر من مستواه الخيالى وبرجه العالى الذى كان يعيش فيه مطلا على الشعوب الأخرى يسخر منها ويستهزئ بها ـ الى مستوى تلك الشعوب « غير المختارة » التى كان يحتقرها وثنيتها ، وكان يعتقد أنها خارجة عن نطاق رعاية الله ورحمة الرب الاههم وحدهم .

نعم ان بنى اسرائيل المتغطرسين المستكبرين قد سمحوا لأنفسهم أن يختلطوا بالكنعانيين والحيثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين ، وان يصاهروهم ، وان يتخذ كل فريق من بنات الآخر زوجات ، فنشأ جيل وسط ، لا هو من الموحدين ، ولا هو من الوثنيين . فليت شعرى ! هل يعد هذا الجيل الجديد من بنى اسرائيل ؟ أم أنه يعد من غيرهم ؟ أم أن من كان أبوه اسرائيليا فهو اسرائيلى وان كانت أمه وثنية ؟ ومن كان أبوه وثنيا فهو وثنى وان كانت أمه اسرائيلية ؟ تلك مشكلة اجتماعية عويصة نستفتى فيها السادة أولى العلم من الصهاينة الذين هم ـ أو بعضهم على الأقل ـ من نسل هذا الخليط الذى ليس لدينا من الأدلة ما يدل على انه قد فنى وانقرض . وتلك اسئلة توجهها الى رجال القوانين الشرعية والوضعية ليجيبوا عنها مشكورين . وما يقال فى هذا الخليط الذى نشأ فى العصور القديمة يقال فى الأخلاط التى نشأت فى أوربا وغير أوربا فى أثناء القرون الوسطى او القرون الحديثة حين اختلط اليهود بغيرهم من الشعوب الأخرى ، وصاهروهم .

لقد مضى على اخراج اليهود من فلسطين سنة ٧٠م على يد طيطوس الرومانى وتشتتهم فى أنحاء الارض ما يقرب من تسعة عشر قرنا ، فهل من المعقول أن يكونوا الآن بعد هذه القرون الطوال ، وبعد ان اختلطوا بغيرهم من الشعوب والعناصر غير السامية ، أقول : هل من المعقول أن يوصف هذا الشعب بانه شعب حر خالص متصف بالحصانة الشعبية : انى أجزم بان هذا غير معقول ، واوضح دليل على ذلك ما نشاهد من فروق بارزة بين يهود اليوم ويهود الأمس من حيث سحنة الوجوه ولون البشرة ، وطول القامة ، وبروز الأنف وتقوسه .

ومهما يكن من أمر فانه مما لا شك فيه أن « **شعب الله المختار** » ، قد صاهر غيره من الشعوب غير المختارة . ولست أقول هذا الكلام جزافا وانما أستند فيه الى نصوص من الكتاب المقدس لدى اليهود وهو المرجع الأساسى الذى يرجعون اليه فى دعاواهم الكاذبة .

يقول هذا الكتاب المقدس : فسكن بنو اسرائيل فى وسط الكنعانيين والحيثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين . واتخذوا بناتهم لأنفسهم نساء ، واعطوا بناتهم لبنيهم ، وعبدوا آلهتهم (قضاة ٣ : ٥ ـ ٦) .

اننا لا نتحاز ولا نتحيز ، ولا نتعصب ولا نتحامل ، ولكننا نضع الحقائق بين أيدى المشارقة والمغاربة من أحرار المفكرين ليعرفوا ما تنطوى عليه دعاية الصهاينة من تضليل عظيم وبعد سحيق عن الحق ، ثم نضعها أمام أعين الصهاينة أنفسهم ونسالهم : **هل بعد هذه الحقائق الدامغة والأدلة الناصعة يستطيع احد منكم أن يرفع راسه ويفتح فاه ويقول انه من شعب الله المختار ؟ وهل يستطيع احد منكم فى هذه المخازى المخزية أن يقول انه أولى من سواه بامتلاك أى جزء كان من أرض الله ؟**

قد يجرؤ أحدهم ويقول هذا أو أكثر منه فترد عليه ، وتقول فى هدوء ورفق أو سخرية واستهزاء : أيها المغرور بنفسك الشامخ بأنفك اقرأ تاريخك وتاريخ شعبك . واعلم أن الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين .

٢٨ ـ قيام الملكية فى بنى اسرائيل

كان آخر القضاة شموئيل الذى عرب فجعل صموئيل . وكان شموئيل يعد من أنبياء بنى اسرائيل . واسمه بالعبرية שמואל

שמו אל واصله اى من يسمعه الله ، او الله مسموع ، اى أمره معروف مشهور .

« البقية على صفحة ٢٠ »

محمد البشير الإبراهيمي

فقيد العروبة والإسلام

بقلم: عبدالله التل

الزمان . الثلث الأول من القرن العشرين ، والمكان جزء عزيز من ديار العروبة والاسلام هو الجزائر ، وأوضاع البلاد السياسية والاقتصادية والثقافية والدينية يصورها :

استعمار فرنسي عمره مائة عام ، قضى على كيان البلاد السياسي ، وأدخل في روع الغرب المستعمر ان الجزائر فرنسية لأنها ـ بحسب رأيه ـ امتداد لأرض فرنسا يفصل بينهما البحر ، وتغلغل في نفوس عدد كبير من عرب الجزائر أنفسهم فجعلهم بمختلف الوسائل ، يرددون دعوى فرنسا الفاجرة ومنطقها العجيب المستهجن .

واقتصاد وطني منهار ، بعد أن اغتصب الفرنسيس في مدى قرن كامل ملايين الأفدنة من الأرض الخصبة ، ونهبوا موارد البلاد وخيراتها ، واحتكروا التجارة والزراعة والصناعة ، وحولوا شعب الجزائر الى قطيع من العبيد لا عمل له سوى تأمين رفاهية السادة المستعمرين ، وتموين فرنسا بالخمر الذى يستقطر من أعناب كروم الجزائر ، وتموين غرب أوربا بالقمح الذى تنبته حقول الجزائر .

وثقافة فرنسية استعمارية ، هدفها تخريب العقول والنفوس ، وتحطيم الشخصية العربية الاسلامية ، والقضاء على اللغة العربية لأنها لغة القرآن ، وافشاء الأمية حتى زادت نسبتها فى الشعب الجزائرى على ٩٠٪ ، وخلق الدسائس والفتن لتمزيق الشعب واقناع البربر انهم جنس آخر يختلف عن عرب الجزائر .

وحرب سافرة ظالمة لا رحمة فيها ولا هوادة ، تشنها فرنسا « ام الحرية » على الدين الاسلامى الذى يدين به الشعب العربى فى الجزائر ، كما يدين به الشعب العربى فى المغرب وتونس وليبيا بلا استثناء ، حتى اننا لا نكاد نجد جزائريا أو مغربيا او تونسيا أو ليبيا واحدا يدين بغير الاسلام .

والذين يعيشون فى هذه البلاد من غير المسلمين هم من يهود الغرب ومسيحييهم . ومع هذا فقد عمدت فرنسا طوال سنى استعمارها اللعين ، الى محاربة الاسلام فى لغة الاسلام ، لغة القرآن . كما حاربته بنشر الخرافات والبدع وتشجيع الزوايا والطرق التى يديرها مسلمون من عملاء فرنسا مثل قدور بن غبريط . وحاربته منذ اليوم الأول الذى دنست فيه اقدامها أرض الجزائر ، يوم صادرت أموال المسلمين واوقاف المسلمين ومساجدهم وحولت بعضها الى كنائس .

وحاربته يوم جعلت من حكوماتها وحكامها أوصياء على الاسلام ، ووضعت القوانين التى تعطى الادارة الفرنسية حق الاشراف على الشئون الاسلامية ، وسيطرت بذلك على أركان الاسلام الأربعة : الصوم والصلاة والحج والزكاة .

فاصبح الشعب الجزائرى المسلم يصوم ويفطر ويعيد بحسب الأوامر التى يلقيها المدير الفرنسى . ويصلى وراء الأئمة الذين يختارهم الحاكم الفرنسى من بين الخونة والجواسيس ويحج الى بيت الله الحرام بالرخصة الفرنسية التى لا تعطى الا بالرشوة ولعدد زهيد من أفراد الشعب .

ويخرج بعضه فى الخفاء ، زكاة رمزية ، لأنه شعب فقير معدم ، نهب الفرنسيس وطنه وثروات بلاده فلم يبق عنده مال يزكيه .

ولم تستطع فرنسا السيطرة على الركن الخامس وهو الشهادة ، لأن الانسان قد يتلوها فى سره ومن غير أن يسمعها الجندى الفرنسى .

حاربت فرنسا الاسلام الذى جاء به القرآن الكريم وحمل رسالته محمد صلى الله عليه وسلم ، واخترعت بدلا عنه اسلاما جديدا مبنيا على البدع والخرافات وأسمته (اسلام جزائرى) .

وفرنسا التى ادعت العلمانية ، وفصلت الدين عن الدولة رسميا سنة ١٩٠٥ لم ترض فى الجزائر الا بالاشراف التام على الدين الاسلامى . ولم تسمح للمسلمين بممارسة شعائرهم الدينية بحرية ، وحجرت على حرية الدين الاسلامى وآدابه وافكاره ، وفى الوقت نفسه أباحت نشر الفساد والرذيلة والاباحية والانحلال والكفر والالحاد .

على مثل هذه الصورة الكئيبة كانت الجزائر فى الثلث الأول من القرن العشرين ، يوم قضت العناية

الالهية بتكوين جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، لتقود معركة التغيير الجذرى فى حياة الشعب العربى فى الجزائر ، بقيادة العالم المرحوم عبد الحميد بن باديس ومن بعده شيخنا الجليل المرحوم محمد البشير الابراهيمى ، الذى ظل حاملا راية الجهاد أكثر من عشرين عاما ، الى أن انتقل الى جوار ربه فى شهر المحرم المنصرم •

ولقد كان البشير الابراهيمى بما وهبه الله من علم وفضل والمام كامل باللغة العربية وآدابها وفنونها واسرارها ، وقدرة خارقة على التوجيه والوعظ والاقناع خطابة وكتابة ، وبما أوتى من مواهب وطاقات ومزايا وكفايات ، علمية وفكرية وعملية وسياسية لا نظير لها ، مؤهلا لحمل راية الجهاد والذود عن شعب الجزائر المستعبد وعن دينه المضطهد. فحملها بشجاعة وأمانة واخلاص فى ظروف عصيبة وأحوال رهيبة (١) •

فعل الصعيد الجزائرى :

قاد البشير الابراهيمى حملة الاصلاح الدينى لتطهير الاسلام من الخرافات والبدع التى الصقها به الفرنسيس واليهود وعملاؤهم من العرب • وتولى مهمة تنوير العقول وتبصيرها بحقيقة الدين الاسلامى وآدابه وتاريخه ، فقضى على الدين المزيف الذى اخترعه الفرنسيس وأسموه (اسلام جزائرى) •

طالب بفصل الدين الاسلامى عن الحكومة ، أسوة بالدين المسيحى الذى تركت له الحرية التامة فى ممارسة طقوسه وشئونه • وندد بالسياسة الاستعمارية الغبية الغاشمة التى ترمى من وراء بسط سيطرتها على الدين الاسلامى ، الى القضاء على الاسلام •

طالب باعادة أوقاف المسلمين التى اغتصبها الفرنسيس على مر السنين • وهدفهم تجريد الاسلام من وسائل دعمه ونشره وبقائه •

طالب بحرية التعليم العربى واعتبار اللغة العربية لغة البلاد الرسمية • كما طالب باستقلال القضاء الشرعى عن القضاء الفرنسى المبنى على أسس تبيح الرذيلة وتشجع الانحلال •

حارب الحزبية لأنها أداة تمزيق ، وداء وبيل ينخر فى جسم الشعب ، وبخاصة العلمانية منها ، وتلك التى تشجع الكفر والالحاد • وكان رحمه الله بعيد النظر حينما اعتبر الحزبية اشد خطرا على المسلمين من المستعمر نفسه •

سخر من سياسة فرنسا التى كانت تسعى الى التفريق بين العرب والبربر • وأثبت أن الدماء البربرية التى مازجت الدم العربى فى سلسلة من الزمن امتدت ثلاثة عشر قرنا قد أصبحت عربية • وأكد أن وحدة الشعب فى الجزائر راسخة خالدة سداها وحدة الدم واللسان ولحمتها الدين الواحد وروحانية الاسلام •

تحدى سياسة الاندماج التى نادت بها فرنسا بصفاقتها وحماقتها ، وأثبت بشجاعته وقوة حجته ، زيف دعوى فرنسا وسخف منطقها • ودلل على عظمة الاسلام وطاقاته الكامنة التى تعصم شعب الجزائر المسلم من الانمحاء والذوبان والاندماج •

قاوم هيئات التبشير ومن ورائها سلطات الاستعمار، واليهودية العالمية ، وثراء الفاتيكان وبذله وسخائه •

تصدى للغزو الفكرى الاستعمارى الذى يشكك المسلمين فى تاريخهم وتراثهم ، تمهيدا للقضاء على مقومات وجودهم ، وجعلهم كمية مهملة فى ميزان القوى العالمية •

فعل البشير الابراهيمى كل هذا وأكثر منه فى الميدان الجزائرى الداخلى • واصاب نجاحا كبيرا فى معركة اللغة العربية وتدريسها فى مدارس الجمعية التى اخذت تتزايد يوما بعد يوم ، حتى أربت على ٤٠٠ مدرسة رغم بطش المستعمر وارهابه وجبروته، ورغم القوانين الصارمة التى كانت تقضى بالقاء القبض على المدرس الذى يضبط متلبسا بتعليم اللغة العربية، بينما تعطى الحرية للسارق والزانى والفاجر والأفاق والمخرب •

ونجح الابراهيمى فى ابراز الشخصية الجزائرية العربية المسلمة ، بعد أن أحالها المستعمر خيالا ووهما • ونجح فى تجديد شباب الاسلام ، ومسح عنه الغبار الذى تراكم على مر السنين بفعل الاستعمار والتبشير •

ونجح الابراهيمى فى خلق جيل من الشباب العربى الجزائرى المؤمن بعروبته ووطنه ودينه • وكان ذلك الجيل هو نواة جيش التحرير الجزائرى الذى خاض

---

(١) انصح كل أديب وسياسى وقائد ان يطلع على كتاب « عيون البصائر » طبعة دار المعارف • ففيه جانب كبير من جهاد البشير الابراهيمى مدونا بأسلوبه الرفيع • والكتاب زاخر بالدروس السياسية والدينية والثقافية والاجتماعية •

معركة المليون شهيد ، وحرر الجزائر من استعمار مدمر دام ١٣٢ عاما • ولولا جهود جمعية العلماء المسلمين فى الجزائر وكفاح رئيسيها ابن باديس والابراهيمى لما قامت ثورة الجزائر فى غرة نوفمبر ١٩٥٤ • ولولا الجيل الذى رباه البشير الابراهيمى ومعاونوه من علماء الجزائر ، لما استطاع شعب الجزائر أن يقدم للثورة وقودها من شباب محمد الذين انتظموا فى قوافل لا عد لها ولا حصر ، باذلين دماءهم وارواحهم فى سبيل الله وفى سبيل الوطن •

وعلى الصعيد العربى العام :

وقف البشير الابراهيمى حياته على الذود عن حياض العروبة والاسلام ، من الرباط غربا الى أندونيسيا شرقا ، ومن القرم والتركستان شمالا الى حضرموت جنوبا • ولم يكن فى يوم من الأيام اقليميا يعمل للجزائر وحدها أو للشمال الافريقى وحده • ولم يكن عنصريا يدعو الى قومية ضيقة • بل كان انسانا واسع الأفق كبير القلب نقى الضمير ، يدعو الى وحدة اسلامية تسبقها بالضرورة وحدة عربية تقوم على دعائم راسخة من الايمان بالله والايمان بهذه الأمة التى شرفها الله بحمل رسالة الاسلام •

والبشير الابراهيمى الذى خبر دسائس الاستعمار وذاق من ويلاته وجرائمه ووحشيته ، لم يترك فرصة تمر الا اهتبلها لتسخير قلمه ولسانه وطاقاته العديدة ، من أجل الدفاع عن الأقطار العربية التى ابتليت بالاستعمار •

دافع عن حرية المغرب الأقصى ، وعن حرية تونس وليبيا ومصر وسورية والعراق وفلسطين ، كما دافع عن مسلمى الهند وروسيا والصين • وعاش الابراهيمى معارك الكفاح والتحرير التى خاضتها الأمة العربية من محيطها الى خليجها • عاش أحداث العروبة والاسلام وتفاعل معها وانفعل بها • دعا الى الاتحاد والوحدة ، وندد بالانقسام والفرقة ، افحم الغرب المستعمر وأبطل دعواه وانكاره عروبة الشمال الافريقى • افتخر بمصر وأمجادها القديمة والحديثة ، واشاد بها مركزا للاشعاع الفكرى وقلبا للدفاع عن ديار العروبة والاسلام ، لا سيما بعد ثورتها المباركة التى قادها الرئيس **جمال عبد الناصر** •

وتغنى الابراهيمى بالأزهر واثره فى الثورات المصرية المتتابعة وفضله على العالم الاسلامى • ودعا الى تطوير التعليم فى الأزهر ليزاوج بين علوم الدين وبين علوم الدنيا ، ويهيىء أبناءه لأن يكونوا رجال دين ودنيا •

ولفلسطين من كفاح الابراهيمى سهم وافر • فقد اعتبرها قضية العرب والمسلمين الأولى ، ومشكلة المشكلات فى العصر الحديث • نبه لأخطار الصهيونية وحذر من الاعيب اليهودية العالمية ومكرها وخداعها قبل ان تقع الكارثة • وحين ضاعت فلسطين أصيب الابراهيمى بجرح لم يندمل أبدا • وبكاها دما ، وندد بالعرب والمسلمين الذين فرطوا فى الأمانة وما استطاعوا نيل شرف حماية بيت المقدس من الغزو الصليبى الجديد ، الذى تستر فى هذه المرة من وراء راية صهيون • ولا غرابة فى هذا ، فالابراهيمى كان يرى أن فلسطين أحق بالحماية والرعاية من الجزائر وطنه الأول • وكان يرى ان بيت المقدس جزء من الدين الاسلامى ، وواجب الدفاع عنه فرض عين على كل مسلم ومسلمة •

ولم ترض همة الابراهيمى بالاطلاع على المشكلات العربية الاسلامية والاسهام فى حلها وهو جالس فى وطنه الأول الجزائر ، وانما رحل الى المشرق العربى والمشرق الاسلامى أكثر من مرة زار بلاد العرب والمسلمين وعاش فى سورية ومصر مهاجرا فى سبيل الله مبتعدا عن ظلم الفرنسيس • زار فلسطين والحجاز وتركيا وافغانستان وباكستان واندونيسيا وايران • وكان فى جميع أسفاره داعية خير ومحبة وتوفيق ووحدة • فرق فى علاقاته بين شعوب الاسلام وبين حكامها ، فاحب الأولى وبذل فى سبيلها من علمه وفضله ونصحه ، وتعالى على الحكام الذين يسيرون فى ركاب المستعمر عدو العرب والاسلام ، ولم يتوان عن لومهم وتوجيه النقد لهم وتبصيرهم بعاقبة ذلهم وخيانتهم • وكان الابراهيمى فى حله وترحاله يعرف العرب والمسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، بحقيقة المأساة الجزائرية ، فعرف الناس الجزائر بعالمها وسفيرها الابراهيمى •

وفى السنوات التى قضاها الابراهيمى فى مصر ، سعدت بان أكون من تلاميذه الذين نهلوا من غزير علمه وقبسوا من كريم أخلاقه • عرفته فى أطوار متباينة من مر الحياة وحلوها ، واشهد بانه كان على الدوام ذلك الامام العملاق الذى لا تهزه أحداث الحياة ولا تفت فى عضده أو تنال من عزيمته وقوة ايمانه •

ولقد توج الابراهيمى جهاده وكفاحه فى تأييده المطلق للثورة الجزائرية • فمنذ اليوم الأول لاندلاعها ، أوقف الابراهيمى نشاط الجمعية وامر جميع أتباعه وأنصاره وتلاميذه ومريديه وهم يشكلون خلاصة الشعب الجزائرى ، بتأييد الثورة والالتحاق بكتائب الجهاد •

وفى احتفالات عيد النصر التى أقيمت فى الجزائر اول نوفمبر ١٩٦٢ ، رأيت البشير الابراهيمى فى أحسن ســاعات حياته واعظمهـا . لقد أم جموع المسلمين التى احتشدت لأداء صلاة الجمعة فى مسجد كتشاوة الذى حوله الاستعمار الفرنسى الى كاتدرائية وظل كذلك طوال مدة الاحتلال الذى دام ١٣٢ عاما، الى أن عاد الحق لأهله بعد انتصار الثورة .

والقى الابراهيمى خطبة الجمعة مكتوبة على غير عادته . وكان واضحا ان المناسبة العظمى قد هزته وفرضت على شيخوخته الجليلة أن يسجل ما كان يجول فى خاطره على الورق . وجاءت الخطبة درسا رفيعا فى السياسة والتاريخ والدين لا تعالى فيها ولا شماتة . لقد لخصت الخطبة تاريخ الجزائر بما فيه من دروس وعبر ، وعبرت عن فرحة الحاضر وآمال المستقبل . وكانت فى نظرى خطبة وداع فاه بها فارس عالم بطل ، أثقلت كاهله العلة وأرهقته تبعات الجهاد الطويل . وكنت وأنا أستمع الى خطبته ترن فى أذنى كلمات البطل أسامة بن المنقذ :

مع الثمانين عاث الدهر فى جلدى
وساءنى ضعف رجلى واضطراب يدى
فان كتبت فخطى جـد مضطرب
كخط مرتعش الـكفين مرتعـد
فاعجب لضعف يد عن حملها قلمـا
من بعد حطم القنا فى لبة الأســد

على ان الاجهاد الذى كان باديا على الشيخ البطل لم يحجب عنا ابتسامة الرضى واشراقة فرحة العمر التى كانت تنفذ الى أعماق الجماهير الملتفة من حول الشيخ فتفهم تفسيرها :

من عاش بعد عدوه يوما فقد بلغ المنا

وبعد ، فانى لا استطيع فى هذه الكلمة القصيرة ان أدون جزءا يسيرا من تاريخ الشيخ العالم البشير الابراهيمى ، لأن تاريخه يحتاج للاحاطة به ، الى مؤلف خاص تدون فيه أعمـــاله ومفاخره ومآثره وبطولاته وتضحياته .

اما خسارة العروبة والاســلام بفقد البشــير الابراهيمى فعظيمة لا يعوضها الا الله القادر على هداية شبابنا ودفعهم الى ترسم خطاه والسير على نهجه .

رحم الله شيخنا العزيز واسكنه فسيح جناته مع النبيين والصدقين والشهداءوالصالحين وحسن أولئك رفيقا .

« عبد الله التل »

«بقية المنشور على صفحة ١٦»

وقد ظل شـــموئيل يعظ قومه حتى رجعـوا الى الحق ، وأحيا فى أنفسهم الشجاعة المادية والدينية ، ودعاهم الى الجهاد فاستمعوا له وأطاعوه ، وأغاروا تحت قيــادته على الفلسطينيين فانتصروا عليهم وغلبوهم .

وشموئيل هذا هو المقصود بقوله تعالى : « ألم تر الى الملأ من بنى اسرائيل من بعد موسى اذ قالوا لنبى لهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله »

وبعد أخذ ورد انتهى الأمر باختيار طالوت من سبط بنيامين بن يعقوب ملكا على بنى اسرائيل ، وكان ذلك سنة ١٠٤٠ ق . م على ماقيل . وطالوت هو المذكور فى قوله تعالى : « ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا » . وقد ذكر فى العهــد القديم باسم شاؤول ، على وزن طالوت . وهو שָׁאוּל اى المطلوب أو المسئول . فهو على صيغة اسم المفعول من الفعل الثلاثى فى اللغة العبرية . وقد جـاء فعول فى العربية بمعنى مفعول كما فى حمول وركوب وغيرهما مما ذكره ابن سيده فى الخصائص . وقد سمى كذلك لأنه هو الذى جعل ملكا تلبية لطلب بنى اسرائيل .

ويبدو أن التسمية العربية (طالوت) ترجـع الى ما عرف به هذا الملك من ضخامة الجسم التى يشير اليها قوله تعالى : « وزاده بسطة فى العلم والجسم »

فطالوت على وزن فعلوت بفتحتين من الطول ، على نمط جبروت ورحموت .

وبقيام الملكية فى بنى اسرائيل قضى على الفوضى والاضطرابات التى شاعت بينهم فى عهـد القضاة .

وامتد حـــكم طالوت بضع سنين ، واقتتل هو وجالوت أحد جبابرة الكنعانيين ، وكان عاتيا جبارا لم يجرؤ أحد على مبارزته ، فأشار شموئيل النبى على داود أحد جنود طالوت أن يبارز جالوت فبارزه فقتله ، وكان داود اذ ذاك فى الثلاثين .

وكان انتصار داود سببا فى أن الشعب أحبه ، واقبل عليه فحسده طالوت وهم بقتله فهـرب ونجا من شره . وأخيرا ندم طالوت ، ورأى أن يكفر عن سيئاته فالقىبنفسه فى ميدان القتال مع الفلسطينيين فقاتلهم حتى قتل وخلفه على العرش داود ، وخلف سليمان أباه داود على النحو الذى سنشرحه فى عدد تال ان شاء الله .

حامد عبد القـــادر

العرب في إفريقيا

قصة الرياح الموسمية

للدكتور: عبد العزيز كامل

— ٤ —

حضارة وتجارة :

كان جانب كبير من رخاء عرب الجنوب قبل الاسلام راجعا الى نشاطهم التجارى فى المحيط الهندى . وكان هذا النشاط قائما على علاقات من المنافع المتبادلة بين ساكنى شواطىء المحيط . وادى هذا الرخاء الى اثارة مطامع اليونان والرومان فحاولوا السيطرة على أرض البخور فى جنوبى الجزيرة العربية وسيروا لذلك حملة أشرنا اليها فى المقال السابق . وهى حملة اليوس جاليوس التى أمر بها قيصر روما فى عام ٢٤ق٠م٠ وقد منيت هذه الحملة بفشل ذريع . وحاول اسطرابون — الذى رافق الحملة — أن يفسر هذا الفشل فرده الى نوع السفن المستخدمة ، والطريق التى اتبعته الحملة وتجهيزها .. ويعنينا من تعليقه عليها قوله واصفا عرب الجنوب « **فالعرب ليسوا شديدى الميل الى الحرب حتى على الارض ، وانما هم فى الغالب أصحاب تجارة ، ولا ميل لهم اطلاقا الى الحرب فى البحر** »

وهذه العبارة تستوقف النظر ، لانها تتناقض مع ما كتبه المؤرخون عن الجزيرة العربية بعد قيام الاسلام حين صوروا العرب شعبا أو قبائل لا هم لها الا الحرب والقتال والعدوان والطمع فيما عند جيرانهم والغارة عليهم . وكان هذا جزءا من الاسلوب المسموم الذى حاولوا به أن يسموا العروبة والاسلام بميسم العدوان والغارة على العالم الأوربى ؛ بل كان جزءا من المخطط الغربى للغارة على العالم الاسلامى والحط من شأن العروبة والاسلام .

وقد يكون فى عبارة استرابو تعميم كبير ، ولكنها تلقى ضوءا قويا على فكرة الرومان وتشذ عن عرب الجنوب ؛ وهى فكرة لها خطرها عند قوم يجهزون حملة لغزو الاجزاء الجنوبية من الجزيرة العربية .

وهناك فارق كبير بين العدوان وبين الشجاعة والاقدام . فعرب الجنوب لم تكن تنقصهم الشجاعة ولا الاقدام . فقد خاضوا لجج المحيط الهندى ، واخترقوا الصحارى وطلعوا ثنايا الجبال وسكنوا السواحل البعيدة .. ولم تكن حياتهم دائما تجرى رخاء ، وانما كانت حياة لها شدتها وقوتها أحيانا ، ولها ثمارها الطيبة بعد خوض المحيط واختراق الصحراء .

فالى جانب الاحتكاك الذى لا تكاد تخلو منه علاقات جوار وتشذ ، كان التبادل السلمى أساس العلاقات فى عالم المحيط الهندى قبل مجيء اليونان والرومان ، والصبغة الغالبة على هذا الجزء من العالم .

ولعل ما خلفه المصريون القدماء من آثار عن علاقاتهم ببلاد « بونت » يلقى ضوءا قويا على هذا الامر . ولازال المؤرخون على خلاف . فى التحديد الدقيق لموقع هذه البلاد ، وان كان الارجح انها تشمل الشاطئين الاسيوى والافريقى منطقة بوغاز باب المندب وما وراءها جنوبا .

فلم تحفظ الآثار المصرية قصة حرب حدثت بين المصريين وسكان هذه البلاد . ولازالت أخبار اكبر هذه الحملات البحرية فى عهد حتشبسوت — فى منتصف القرن الخامس عشر قبل الميلاد — مسجلة على جدران معبد الدير البحرى توضح الاسلوب السلمى الذى كان متبعا فى العلاقات بين مصر وبونت ، أو بعبارة أخرى بين الجزء الشمالى الشرقى من افريقية والجانبين الافريقى والاسيوى من منطقة باب المندب .. ومن مصر أبحرت ضمن سفن محملة بمصنوعات مصر من حلى وأدوات وأسلحة ، ثم عادت وعليها الماشية الصغيرة والقرود وأشجار

البخور والعاج والمر والاخشاب النادرة . ورسموا مناظر بلاد بونت مع تفاصيل كثيرة وبعض المداعبات اللطيفة .. ولقد سبقت تلك الحملة حملات أخرى وجاءت بعدها حملات .

واستمرت العلاقات - على هذا الاساس - قرونا طويلة ، لم يكن يعكر صفوها الا ماتتعرض له تجارة البحر الاحمر من غارات القراصنة ، واضطرت معه السفن عابرة البحر الى أن تصحب معها من الرماة والمحاربين من يذود عنها العدوان .

الصراع بين العرب وبين اليونان والرومان :

ظل عرب الجنوب حتى القرن الاول الميلادى يستخدمون أكثر من طريق لنقل البخور من عالم المحيط الهندى الى الشمال ..

كانوا يجمعون هذه السلع من مصادرها المحلية فى الجنوب العربى ومن الشاطىء الافريقى ومن الشاطىء الهندى . وكان موانى الجنوب العربى مخازن كبيرة لهذه التجارة . ومنها كانت تنقل بالابل من مارب الى مكة ثم الشام ومصر ، وبذلك كانت تتحاشى أخطار البحر الاحمر . وأحيانا كانوا ينقلونها من موانى الجنوب العربى بحرا مباشرا الى النهاية الشمالية للبحر أو تختصر طريقها عبر الصحراء الشرقية الى منطقة ثنية قنا فى مصر . وبذلك استخدم عرب الجنوب كلا من الطريق البرى والبحرى حسبما تقتضى ظروف الامن التجارى .

ومن المنتظر أن يبدأ التنافس بين اليونان وعرب الجنوب فوق مياه البحر الاحمر . وأن يتوسل البطالمة فى مصر الى ذلك باعادة فتح القناة الموصلة بين البحر الاحمر والنيل فى القرن الثالث قبل الميلاد وأن يجد عرب الجنوب خصما خطرا يرتكز على قاعدة لها جبهتها البحرية على البحر الاحمر وجبهة أخرى على البحر المتوسط . ويرث الرومان هذه السياسة فى منتصف القرن الاول قبل الميلاد ، ويتطلع الذئب الرومانى لينشب مخالبه فى الجنوب العربى .

وشاهد الرومان الذهب يتحول من أيديهم الى أيدى عرب الجنوب ثمنا للبخور وسلع المحيط الهندى ، ولايكتفى الرومان ببسط نفوذهم على البحر الاحمر وانما يتطلعون الى السيطرة على القاعدة العربية فى الجنوب العربى ومصادر التجارة العربية فى عالم المحيط الهندى .

وهنا تتخذ المحاولات طريقين :

١ - الطريق العسكرى الذى ظهر فى حملة أليوس جاليوس وقد سبق عرضه .

٢ - الطريق التجارى الذى يحاول السيطرة على المحيط الهندى .

وهنا يبرز اسم لازال حوله جدل بين العلماء وهو «هيبالوس» . هل هو ملاح حقيقى وشخصية واقعية ؟ واذا كان فهل كان يونانيا أم رومانيا أومتى عاش ؟ ومع أى قائد عمل ؟

ولا شك فى أن فى أواخر القرن الثانى قبل الميلاد شهدت تسرب اليونانيين الى مياه المحيط الهندى ، وتطلعهم الى هذا العالم الذى سيطر عليه أبناء الشعوب المطلة .. وراعهم ما عند عرب الجنوب والهنود من معرفة بشئون المحيط الهندى . وحاولوا الوصول الى هذه المعرفة : معرفة نظام الرياح فى هبوطها ومواسمها ، ومعرفة أحوال السواحل ومعالمها :

ففى فصل الصيف تهب الرياح الموسمية الجنوبية الغربية . بينما تهب من الشمال الشرقى فى فصل الشتاء .. وهبوبها ليس بقوة واحدة طول الموسم .. وتستطيع السفن الذاهبة الى الهند أن تفيد من الرياح الجنوبية الغربية صيفا ، ومن الرياح الشمالية الشرقية شتاء : أى أنها تستطيع أن تكمل رحلتها الى الهند ومنها فى عام واحد .

ويبدو أن عرب الجنوب أحاطوا هذه الرحلات بكثير من الاساطير ونسجوا حولها من القصص ما يصرف غير أبناء المحيط الهندى عنه ، فلا يطمعون فيه : تحدثوا عن الامواج العالية والاحياء الضخمة الخطرة التى تعيش فى المحيط والمخاطر التى تتعرض لها سفنهم وفى رحلاتها الى شواطىء المحيط فى الهند وافريقية . ولا زال أدبنا العربى يحمل لنا قصصا كثيرة من هذا القبيل لعل أروعها ما جاء فى قصص « السندباد البحرى » ، ودخل جانب من ذلك فى كتابات المؤرخين والجغرافيين العرب على أنه جزء من التراث الفكرى وعرضوا له بالنقد . ويمكن القول بان هذه القصص التى حاكها الخيال كانت نوعا من « الدفاع » عن المحيط يصرف الانظار عنه ، وليكتفى الذين يشترون البخور بما يدفعون من مال ، وقد حمل عنهم أهل المحيط الهندى أخطار التجارة واهوالها . ولا يمكن بهذا أن نعتبرها جزءا من « المعرفة العلمية العربية » بالمحيط الهندى وما وراءه حتى الصين ، أو أن نحكم على مستوى الفكر العربى

من خلال هذه الاساطير · ولا يمنع ذلك من أن تختلط الحقائق بالخيال في بعض المؤلفات العربية وبخاصة كتب العجائب في عهود الضعف ·

وكما ان شخصية « هيبالوس » لا تزال محل جدل وشك ، فان الكتاب الذى ذكر هذه القصة لا زال مؤلفه ايضا مجهولا ·· ففي أواخر القرن الثاني الميلادى طاف بالمحيط الهندى ملاح يوناني لا يعرف اسمه ، ربما كان من أهل ميناء «برنيس» على شاطىء البحر الاحمر ، وترك أثرا مكتوبا بالرحلة عنوانه « الطواف بالبحر الاريترى » ، يدل على أن الرومان اسسوا قواعد لهم في منطقة باب المندب وما حولها · وقد ناقش «دى لاسى أوليرى » قصة هيبالوس في كتاب عن « علوم اليونان وسبل انتقالها الى العرب » · فهيبالوس اسم يطلق على ذلك الملاح المجهول ، ويطلق على الرياح الموسمية الجنوبية الغربية التي تهب صيفا في المحيط الهندى، ويطلق أيضا على البحر · ويرى دى لاس أوليرى انه بالرغم من دقة كتاب ، « الطواف بالبحر الاريترى » فيما أورده من معلومات بحرية ، الا انه فيما يتعلق بهذا الجزء ينبغي أن يؤخذ بتحفظ ويقول « اذا كان هيبالوس شخصا حقيقيا · فمن عجب أن الأجيال التالية لم تعرف عن فتوحاته البحرية الا هذا القدر الضئيل ، ولا شك في أن « الاكتشاف » يعني حسن استخدام المعلومات المستقاة من البحارة ، وبذلك زود الناس بفكرة عن موقع الساحل الهندى » ·

والذى يقوله كتاب الطواف بجلاء وينسبه الى هيبالوس وهو كيفية الافادة من الرياح الموسمية في رحلة « الذهاب الى الهند » · والمقصود هنا هو الرياح الجنوبية الغربية ورحلتها محفوفة بالمخاطر · فهذه الرياح عندما تهب من يونيو الى اكتوبر تكون عنيفة . فلا تستطيع السفينة الشراعية أن تواجهها احيانا ، كما أن ساحل الهند الغربي تنقصه الموانى الصالحة ولا تستطيع السفن في الجو العاصف أن تقف بعيدة عن الشاطىء · ولكن مع الخطورة الظاهرة فان هذه الرحلة أسرع من الرحلات التقليدية الساحلية ··

ولن ندخل هنا في تفاصيل ملاحية ، ولكن الذى يستوقف النظر أن الملاحين اليونان والرومان استطاعوا أن يصلوا الى هذه التفاصيل الملاحية : أن يعرفوا مواسم الهبوب وهذه لايستطيع الملاح معرفتها الا اذا قضى على الاقل عاما كاملا في عالم المحيط الهندى ، وأن يعرفوا الكثير من المعلومات عن شواطىء المحيط الافريقية والآسيوية ، وما تحتاج اليه سفنهم من تعديل لتقابل أخطار الملاحة هناك ·

والذى يستوقف نظرنا أيضا ان وصول اليونان والرومان الى هذه المعلومات امر لا زال يكتنفه الغموض ··

ترى ، هل كان الوصول اليه على مراحل وبتدبير معين ؟ هل كان جزءا من المخطط الطويل المرسوم للسيطرة على تجارة المحيط الهندى ، والقضاء على الكيان الاقتصادى لعرب الجنوب ؟

ان الدلائل كلها تشير الى ذلك، ويذكر «بلينيوس» وقد كتب مؤلفه في القرن الأول الميلادى أن الرياح الموسمية الجنوبية الغربية لم تستخدم بطريقة منظمة « كل سنة » الا بعد استقرار هذا الاكتشاف استقرارا نهائيا ·

وهكذا انتقل سر الرياح الموسمية من أيدى العرب والهنود الى أيدى الاغريق والرومان وبدأت بذلك مرحلة جديدة من مراحل الحياة في المحيط الهندى ، سيطر فيها هؤلاء على التجارة في المحيط والبحر الاحمر ، وكونوا لهم نقطا تجارية على طول الطريق واستطاعوا أن يعزلوا الجنوب العربي – الى حد كبير – في هضابه وجباله الداخلية وقطعوا عنه الكثير من مصادر قوته الاقتصادية ، وانعكس هذا على تطوره الداخلي ·

فاذا كانت الحملات العسكرية الرومانية قد فشلت في اخضاع الجنوب العربي ، فان الحرب العلمية ونقل ميدان المعركة من البر الى البحر قد حقق للرومان ما أرادوا من عزل الجنوب العربي والسيطرة على تجارة المحيط الهندى والبحر الاحمر ·

بين عهدين :

وكانت النتيجة المنتظرة أن بدأت تخبو مشاعل الحضارة في المدن العربية المنتشرة على طول الطريق التجارى بين اليمن والشام · ودخلت الحضارة السبئية في مرحلة ذبول ومن ورائها المراكز التجارية حتى بترا وتدمر وبلاد العراق الشمالية الغربية ·

وهنا لابد من وقفة نقارن فيها بين طبيعة العلاقة التجارية قبل هذا الغزو العسكرى والاقتصادى الذى أصيب به الجنوب العربي ، وما تطورت اليه أوضاع المحيط الهندى من بعد ·

ان باب الخطر على الجنوب العربي كان من مصر·· وازدهاره التجارى قبل كان مرتبطا بمصر الى حد كبير ·

« بقية المنشور على صفحة ٣١ »

من علم البدوى الماء يركبه
فراح يمخر لج البحر ماخره ؟

فماذا يريد أن يقول ؟ أتراه ينكر ان الشعب العربي ولا سيما قبل الاسلام يغلب عليه طابع البداوة؟ أتراه ينكر أن سفينته المفضلة كانت الجمل ، سفينة الصحراء ؟ أتراه ينكر أن الاسلام كون من هذا الشعب اسطولا بحريا غزا بحر الروم حتى جعله بحيرة عربية ، ثم واصل الغزو حتى وقف على أسوار القسطنطينية ؟ كل هذه معلومات مسلمة الثبوت ، لا تقبل النقاش ، وحسبنا هذا حتى تتحقق سلامة البيتين . أما أن العرب كان منهم حضريون يسكنون المدن ، وأن بعضهم عرف البحر معرفة نسبية فهذا لا يقدم ولا يؤخر فى الموضوع ، ولا يقدح قيد أنملة فى البيتين . فان شاء أن نزيده مددا من المعرفة فى هذا الصدد قلنا له : ان الشعب العربي ، بل ان عمر نفسه كان يخشى ركوب البحر، وقد طلب منه عامله على مصر بناء عمارة بحرية يغزو بها بحر الروم، فلما وصف له البحر بالقطعة المشهورة « انى رأيت خلقا كبيرا يركبه خلق صغير، هم فيه كدود على عود.. الخ» قال : « والله لا حملت فيه مسلما » وهكذا ظل العرب يرهبون البحر الى ما بعد عهد عمر ، فبنيت السفن ، وبلغت العمارة البحرية أوجها فى عهد معاوية ، فماذا يريد الأستاذ منا بعد ذلك؟ مرة أخرى ندعوه الى تفهم الحقائق الشعرية ، والى التفرقة بين الشاعر ومدرس التاريخ .

وأما فى علم الجغرافيا فقد ألقى الدكتور الناقد ـ نفعنا الله بعلمه ـ درسا آخر أطول من ليل النابغة فى نشأة الفصول الأربعة وما الى ذلك مما يتعلق بالاعتدالين والانقلابين بسبب ميل الأرض على مستوى فلكها بزاوية مقدارها ٢٣٫٥ درجة تقريبا الى آخر ما ذكره فى هذا الصدد مما درسناه صغارا وذلك كله بسبب بيتين مشئومين آخرين ، هما :

قالوا الربيع فقلت العدل شيمته
لا فى النهار ولا فى الليل نقصان
تعادل الليل فيه والنهار معا
كأنما هو للأيام ميزان

وهو يأخذ علينا أن التعادل لا يتحقق الا فى أول أيام الربيع ، وهذا حق . بيد أننا نقول له : اننا حين نتكلم عن الربيع نتكلم عن مقدمه ، فهو الذى يشيع البهجة ، ويهز المشاعر ، وفى مقدمه هذا يتعادل الليل والنهار ، ثم يكونان أقرب الى التعادل . وهذا يكفى لتحقق سلامة البيتين .

هذه نظرة الشاعر الى الربيع ،وهى غير نظرة العالم الفلكى اليه ، فالثانى يقيس أبعاد الزيادة والنقصان بين ليله ونهاره فى كل يوم من أيامه بالدقيقة والثانية طبقا لتنقل الشمس فى أبراجها . وقد بح صوتى من دعوة الدكتور الى التفرقة بين نظرة الشعر الى الشىء ونظرة العلم اليه ، ولكن يظهر أن المسألة ما زالت فى حاجة الى مزيد من الشرح .

ان الشعر يتغنى مثلا بجمال الربيع ، ولكن العالم الفلكى قد يجرده من كل جمال ، ويعتبره أقسى فصول العام بالنسبة للأصقاع الواقعة فى منطقة خط الاستواء حيث تتعامد الشمس على تلك البقاع عند حلول الربيع ، فتصليها حرا يذيب دماغ الضب ، ولعل ربيع هؤلاء يقع فى الانقلاب الصيفى حين تتعامد الشمس على مدار السرطان ، أو فى الانقلاب الشتوى حين تتعامد على مدار الجدى . فهل من أجل هذه النظرية العلمية نخطىء كل ما قيل من الشعر العربى والشعر الغربى فى التغنى بجمال الربيع ؟

وان الشعر يتغنى بجمال الزهر فى الربيع نفسه، ولكن عالم التاريخ الطبيعى يحذرك من الزهر كما يحذرك من الأفاعى والصلال ، فهو فى أثناء الليل يمتص الأوكسوجين من الهواء ، وينفث ثانى أوكسيد الكربون الذى يفسده ، ومن هنا كان النوم فى الحدائق قد يسبب الاختناق ، والى ذلك يشير شوقى بقوله :

لا تحفل بجناها او جنايتها
الموت بالزهر مثل الموت بالفحم

وان الشعر يتغنى بقبلة من خد الحبيب ، ورشفة من شفتيه ، ولكن الطب يحذرك من الأولى لأنها تنقل العدوى ، ويحذرك من الثانية لأن رضاب الحبيب تفرزه غدد خاصة لا ليمتص رحيقه ، بل ليسهل عملية ازدراد الطعام ، ويحيل ما فيه من نشويات الى مواد سكرية ، ثم هو لايفرق بين رضاب الكاعب الحسناء ولعاب الحيزبون الشوهاء ، على حين يجده الشاعر الأول سلافا ، والثانى سما زعافا .

وقل مثل ذلك فى جمال القمر والماس مثلا ، فالعلم لا يرى فى الأول أكثر من جسم معتم يمتلىء سطحه بالصخور والوحول ولا يرى فى الثانى أكثر من حجر يتكون فى باطن الأرض بنفس الطريقة التى يتكون بها الفحم .

الحقائق وحدها .. من أجل الإنسان

بقلم : محمد الغزالى

يجب احكام الرقابة على الطرائق التى تؤثر بها فكرة عن فكرة ، واتجاها على اتجاه ، فان الغش فى المقاييس العقلية اكثر شيوعا من الغش فى موازين التجار الخونة !

والغريب ان الانسان قد يضيق اذا بخس حقه فى سلعة دفع ثمنها كاملا ، ويشعر بسوأة الختل وسوء المعاملة ، بيد أن هذا الانسان نفسه لايشعر بكبير حرج عندما يصدر حكما خاطئا على أمر من الامور . او عندما يقتنع بصدق اسطورة مبتوتة الصلة بالواقع .. وقد حرك القرآن الكريم جمهور المشركين كى يستبينوا طبيعة مالديهم من عقائد ومذاهب ، وأهاب بهم أن يعيدوا النظر فى تقويمها ! وأن يكشفوا الغش الذى زين لهم قبولها ! وساءلهم أين الدليل على ماذهبوا اليه ؟

« أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم ، هذا ذكر من معى وذكر من قبلى ، بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون » .

« أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والارض أاله مع الله قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » .

والمطالبة بالبرهان فى كلتا الآيتين ليست أكثر من عرض لاعادة النظر فى المواريث الفكرية السائدة حتى ينبذ منها مالا دليل عليه ، وحتى يتخلص الانسان من قيود الوهم التى تشل قدرته وتضلل غايته .

ولسنا هنا فى مقام التنديد بقوم الغوا عقولهم ، وتبعوا ما انتقل اليهم عن آبائهم ، فاذا بدا لهم خطله أصروا عليه ، لبلادة غلفت عقولهم بالتعصب ، وجعلتهم يردون هاديهم الى الحق بهذا الجمود « قال اولو جئتكم باهدى مما وجدتم عليه آباءكم . قالوا انا بما ارسلتم به كافرون » ، فان هذا النوع من الدهماء مهدر الكرامة ، بين الرذيلة .

انما حديثنا هنا فى كثير من أولى العقل الذكى ، والفكر النير ممن يحترمون المنطق ويتحتون للدليل ، ولكنهم لامر ما سمحوا لافكار شتى أن تتسرب الى نفوسهم ، وأن تؤثر فى سلوكهم دون وعى كامل ونقد حصيف .

والزلل الفكرى لهؤلاء الكبار بعيد المدى .

واشيع ما يكون هذا الزلل بين المبرزين فى فن ما عندما يتكلمون فى فن آخر .

ان الرجل قد يتبوأ القمة فى علم الطب ، فاذا تحدث فى التشريع او اللغة وقع فيما لايقع فيه الناشئة وبعض المخترعين تحدث فى الدين بكلمات تثير الضحك ، وابدى آراء لاوزن لها .

واذا تركنا ميادين التخصص العلمى المختلفة وجدنا أنفسنا أمام عوائق أخرى دون الحقيقة المجردة .

ان العلماء فى ميدان واحد قد يبدءون البحث من أساس هو موضع ثقتهم التامة ، مع أن هذا الاساس نفسه مدخول خادع .

وما أكثر الوراثات والاشاعات والافهام التى لا تثبت على التمحيص وهى عند أصحابها عقائد مكينة ، ومن ثم فنحن أحوج ما نكون الى المنطق العلمى الصارم فى تقويم كل شىء ، وترتيبه حسب منزلته من اليقين .

يقـــول « الكسيس كاريل » : في جميع الازمان كانت الانسانية تتأمل نفسها من خلال منظار ملون بالمبادىء والمعتقدات والاوهام ، فيجب أن تهمل هذه الافكار الزائفة غير الصحيحة • ومنذ أمد بعيد أشار « كلود برنار » في كتاباته الى ضرورة التخلص من النظم الفلسفية والعلمية كما يفعل الانسان حينما يحطم سلاسل العبودية العقلية ، ولكن بلوغ مثل هذه الحرية لم يتحقق بعد ، لانالبيولوجيين والمعلمين والاقتصاديين وعلماء الاجتماع ، كانوا اذا ماواجهتهم مشكلات شديدة التعقيد غالبا ما يستجيبون للاغراء الذى يستحوذ عليهم لكى يبنوا نظريات ثم يقلبوها بعد ذلك الى معتقدات ، ومن ثم فقد تبلورت علومهم على شكل تراكيب ، شأنهم في ذلك شأن المتعصبين للديانات • اننا نلاقى كثيرا من دواعى التذكير التى تثير التعب بسبب هذه الاخطـــاء في جميع نواحى المعرفة » •

ونحن نود لو عولجت الآراء والمقترحات والمذاهب باقصى مالدى البشر من ذكاء وتجرد • وحرية ، فان الاوهام بين النـــاس أكثر من الحقائق ، ولو كانت الظنون العلمية والاجتماعية والدينية تتساقط من اذهان أصحابها كما يتساقط ورق الشجر في فصل الخريف ، لعريت عقول كثيرة ممـــا يتماسك بها ، وما يطلبه مؤلف « الانســـان ذلك المجهــول » هو ماسلكه كبار العلماء عندنا • ان نشدان اليقين هو غاية المفكرين المسلمين في مزدحم الآراء التى تلقاهم ولاشك ان القرآن الكريم من وراء هذا السعى الحميد•

وتأمل في هذه الآيات التى تجمع الرذائل الفكرية والنفســـية لأى رأى وتحذر من مقـــارفتها « قتل الخراصون الذين هم في غمرة ساهون ، يسألون أيان يوم الدين ؟ » •

التخرص ، والانغماس في الغفلة ، والسهو عن الواقع ، هذه آفات لاتنتج حقيقة أبدا ، ومثلهـــا غفلة الحواس وذهولها « ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » ، فكم من حاضر الجسم غائب اللب ؟ أترى ذلك يعى ما أمامه ؟ •

« فذرهم في غمرتهم حتى حين ، أيحســـبون ان ما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لايشعرون » • المرء المغمور بصـــور مادية ومعنوية معينة قلما يخرج من محبسه ليدرك مشـــاهد أخرى للحياة أو جوانب من الحق لايحسها ، الا أن تدركه أقدار حسنة فتتيح له أن يعرف ماكان يجهل •

والحضارة الاسلاميةفي أعصار ازدهارها ، وقربها من منابعها كانت تلمع فيها هذه الصبغة الباهرة ، صبغة التجرد للحق ، والبحث عن اليقين •

ولنتناول طرفا من حياة الغزالى الكبير ، كنموذج اسلامى في مجتمع شبيه بعصرنا هذا ، كانت الافكار فيه والمذاهب تتصارع في كل قرية ومدينة ، اذ أن الثقافات الاجنبية العالمية تمت ترجمتها تقريبا الى العربية في الوقت الذى بلغت فيه علوم الدين واللغة مرتبة الاستقرار ، وشاع الجدل العلمى في كل ناحية وانتشرت مجالسه ومناظراته •

فكان طالب الحق يجد نفسه أمام ألوان شتى من التفكير ، وبين دعوات تجتذبه من هنا ومن هناك • وانك لتلمح مدى الحرية العقلية التى تمتع الغزالى بها وهو يصف نفسه في كتابه « المنقذ من الضـــلال » فيقول :

« ولم أزل في عنفوان شبابى منذ راهقت البلوغ قبل العشرين الى الآن وقد أناف السن على الخمسين أقتحم لجة هذا البحر العميق وأخوض غمرته خوض الجسور لاخوض الجبان الحذور وأتوغل في كل مظلمة وأتهجم على كل مشكلة وأتقحم كل ورطة وأتفحص عن عقيدة كل فرقة واستكشف أسرار مذهب كل طائفة لاميز بين محق ومبطل ومتســـنن ومبتدع لا أغادر باطنيا الا وأحب أن أطلع على بطانته • ولا ظاهريا الا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته ، ولا فلسفيا الا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكلما الا وأجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجـــادلته ، ولا صـــوفيا الا وأترصد ما يرجع اليه حاصل عبادته ، ولا زنديقا معطلا الا وأتجسس وراءه للتنبه لأسباب جرأته في تعطيله وزندقته ، وقد كان التعطش الى درك حقائق الأمور دأبى وديدنى من أول أمرى وريعـــان عمرى غريزة وفطرة من الله وضعتا في جبلتى لا باختيـــارى وحيلتى حتى انحلت عنى رابطة التقليد وانكسرت على العقائد الموروثة على قرب عهد سن الصبا اذ رأيت صبيان النصارى لايكون لهم نشوء الا على التنصر وصبيان اليهود لانشوء لهم الا على اليهود ، وصبيان المسلمين لانشوء لهم الا على الاسلام وسمعت الحديث

المروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: « كل مولود يولد على الفطرة فابواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » فتحرك باطنى الى حقيقة الفطرة الاصلية وحقيقة العقائد العارضة بتقليد الوالدين والاستاذين ، والتمييز بين هذه التقليدات ، واوائلها تلقينات ، وفى تمييز الحق منها عن الباطل اختلافات . فقلت فى نفسي : أولا انما مطلوبى العلم بحقائق الأمور فلابد من طلب حقيقة العلم ما هى ؟ فظهر لى ان العلم اليقينى هو الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب ولا يقارنه امكان الغلط والوهم » .

والمنهج العلمى البحت . الصارم فى ضبط المقدمات ووزن النتائج بموازين الذهب ، لا يلقى اشرف من هذه السيرة ، ولو وضعت هذه السطور المضيئة امام المؤلف الفرنسى الكبير لامتلأ قلبه اجلالا لصاحبها .

ونحن ـ حين نخط هذه السطور ـ نشفق من متاجرين بالحرية العقلية ، لا يؤيدونها الا بمقدار ماتعطى الشبهات حق الحياة ، والخطأ حق الانطلاق ، والفوضى حق التدمير .

فاذا أتاحت لهم الحرية ما يبتغون سدوا على خصومهم أفواه الطرق ودفعوا بالمجتمع كله صوب ما يعتنقون .

وهذه ثمار مرة لا يرى عاقل أن يمهد لها ، والامر يحتاج الى تفصيل ومحاذرة .

ففى ميدان العلم ، وفى مجامعه الكبرى ، وصفوفه العليا يمكن أن تدرس النقائص ، وتسمع شتى الآراء ، وتناقش جهرة دون حرج ، ومع تامين مطلق لذويها .

اما ان يستمكن بعض المنحرفين من آذان العامة ويصبوا فيها الوان الاغراء ، ومنازع الشر ، فهذا هدم لا بناء ، وخطره على المجتمع شديد ، اذ هو سيزلزل القيم التى يتحرك بها ، ويوهى الاواصر التى تشد بعضه الى بعض .

ولقد رأيت بعد انعام النظر واستقراء الاحداث ان الباطل لا يسير فى الارض بقواه الذاتية ، وانما تسيره عوامل الرغبة والرهبة وتسنده الرشا والسيوف ، وعندما تتخلى عنه يتهاوى من تلقاء نفسه .

اما الحق فان تجاوبه مع فطرة الله فى النفوس يجعله مقبولا مستحبا ، ويقدره على تخطى العقبات واجتياز السدود ، اى أن الحق لا يخشى الحرية أبدا ، انما يخشى الحرية العوج والجهل والبغى فى الارض بغير الحق ..

ومن ثم فنحن مع توفير الحرية التامة فى أرجاء المجتمع ، نعتقد ان هذه الحرية بما فيها من حرارة ستنضج السنابل النافعة وتقتل الحشرات الضارة . سيأخذ الحق منها جواز مروره الى الأعقاب على اختلاف الليل والنهار ، وسينكمش الباطل فى جوها، فاما صعق لفوره ، واما تحرك قليلا ريثما يلقى حتفه .

وكم من عوج فى الدنيا ما يمسك بقاءه الااستخفاء هذه الحرية العزيزة ، ولو هبت رياحها يوما لخلعت جذوره .

وبديهى أن الحرية التى نعشق ، تلك التى تحد من جهاتها الأربع بما لا يضر الآخرين .

انها الجو الذى يعيش على تمحيص الحقيقة ويساعد على قبولها دون قسر أو ختل ..

والعلم بالانسان ورسالته ، وضمان حاضره ومستقبله ، والتسامى به مبنى ومعنى جهد رحيب الدائرة ، بل ان العلم بالانسان لا يصح الا مع خبرة محترمة بعلوم الكون والحياة ، واحاطة حسنة بجملة الحقائق المادية والتاريخية والاجتماعية .

ولا غرو فالانسان أثمن درة فى هذا الوجود ، والقصور لا يجدى فى فهم قضاياه . ولذلك يقول « الكسيس كاريل » « ان علم الانسان يستخدم جميع العلوم الأخرى ، وهذا سبب من أسباب بطئه وصعوبته » ويقول « من الواضح طبعا أنه لا يوجد عالم يستطيع أن يتحكم ويتفوق فى جميع الفنون التى لا غنى عنها لدراسة مشكلة واحدة من مشكلات الانسان » .

وليس هذا مثبطا للهمم او معجزا للباحثين . ولنبدأ السير من الآن « سيكون علم الانسان مهمة المستقبل فيجب أن تقنع الآن بالبداية سواء من الناحية

التحليلية أو من الناحية التركيبية المتعلقة بالصفات الانسانية » ٠ ٠

وهنا نشرف على أنفس ما وصل اليه العالم الغربي الالمعي !

ما الانسان الذي نحيطه بتلك الهالة النيرة ؟ ٠ لقد كرم الله الانسان من قديم ، وفضله على صنوف البر والبحر » ٠

وفي عصرنا هذا نجد الانسان بدل أن يصعد السلم بقدمين يحمله المصعد الى أعلى ، وبدل ان يقطع المسافات الشاسعة في سفره تحمله الطائرات الى ما يبغي

ان عناصر وفيرة في الأرض والسماء مسخرة لاراحة البشر وترفيههم ، وكلما ارتقت الحضارة زادت أعداد العناصر المسخرة للانســــان ، وزادت مقدرة الانسان على تطويعها لرغباته ٠

فهل كرامة الانســـــان وعظمته تعودان الى هذه المهارة ؟ كلا ، ان الانسان الذي يصعد الســــلم على قدميه وهو يلهث أشرف من ممطي المصعد ، اذا كان الأول يحمل بين حناياه قلبا زكيا ، ونفسا تقية ، وكان الآخر لا يعرف الا ملء معدته واطفاء شهوته ٠

ليس شرف الانسان بمدى سطوته في الارض ، بل بمدى تنمية مواهبه العليا وملكاته النبيلة ٠

وفي هذه الايام نستقبل أنباء غزاة الفضاء وهم يحاولون بيأس شديد أن يتعرفوا الكواكب الأخرى ، ويضعوا أقدامهم على سطحها ٠

ان هذا تقدم علمي رائع بيد أن قيمته الانسانية هابطة ما بقي البشر على ظهر الارض يأكل أبيضهم اسودهم ، ويستغل قويهم ضعيفهم ، ويصـــبحون ويمسون وهم لا يحسنون الا خدمة الاهاب الطيني الذي احتوى خصائصهم ووظائفهم المادية والمعنوية فان كل انسان منصرف الآن ـ هكذا يقول كاريل ـ الى الاهتمام بالاشياء التي تزيد من ثروته وراحته في حين لايوجد من يدرك أن الصفة البنائية والوظيفية والعقلية لكل فرد يجب أن تتناولها يد التحسين فان صحة العقل والحاسة الفعالة والنظام الادبي والتطور الروحي تتساوى في اهميتها مع صحة الابدان ومنع الامراض المعدية ٠

اننا لن نصيب اية فائدة من زيادة عدد الاختراعات الميكانيكية وقد يكون من الاجدى ألا نضفي مثـــل هذا القدر الكبير من الأهمية على اكتشافات الطبيعة والفلك والكيمياء ٠ ومن ثم فان من الافضل كثيرا أن نوجه اهتماما أكثر الى أنفسنا عن أن نبني بواخر أكثر سرعة وسيارة تتوافر فيها أســــباب الراحــة وأجهزة راديو أقل ثمنا أو تلسكوبات لفحص هيكل سديم على بعد سحيق ما هو مدى التقدم الحقيقي الذي تحققه حينما تنقلنا احدى الطائرات الى أوربا أو الى الصين في ساعات قلائل ؟ هل من الضروري أن تزيد الانتاج من غير توقف حتى يســــتطيع الانسان أن يستهلك كميات أكثر باطراد من أشياء لاجدوى منها ؟ ليس هناك أي ظل من الشك في أن علوم الميكانيكا والطبيعة والكيمياء عاجزة عن اعطائنا الذكاء والنظام الخلقي والصحة والتوازن العصبي والامن والسلام ٠ يجب أن نصرف حب استطلاعنا عن سبيله الحاضر وتوجهه في اتجاه آخر ٠٠

يجـــــب أن ننصرف عن الأبحـــــات الطبيعـــية والفسيولوجية لنتبع الأبحاث العقلية والروحيـــة ٠

وقائل هذا الكلام رجل يستمد معرفته من المعمل، والارقام ، والوقـــائع ، وهـــــو يبغي بمنطق العلم التجريبي المنزه عن الوهم والمجازفة أن يعرف الانسان نفسه ومصلحته العاجلة أو الآجلة ٠

ولو وعى رجال الدين وظيفتهم لأسهموا بنصـيب كريم في هذا الميدان ٠٠ أعني أن يلفتوا الى هذا العلم الجديد « علم الانسان » ليضيئوا متاهاته بمنارات الوحي ، فان كل علم للانسان يجب ارساء قواعده على الايمان بالله واليوم الآخر ، وعلى اعتداد مرحلة العمر فترة اختبار لها ما بعدها ٠

وعبيد الدنيا ينكرون هذا الكلام أشد الانــــكار ويتوهمون أن مستقبلهم هنا ، وحسب ٠

ما أشبههم برجل قرر أن يزرع صحارى القطبين ، واستصحب في رحلته اليها قناطير البذور انه لن يجني من جليدها الا متاع الغرور ٠

محمد الغزالي

رد على نقد

كيف نفهم الحقائق الشعرية..؟

بقلم : محمود غنيم

لا نظن الملاكم «ليستون» ما يزال يترنح الى اليوم من أثر الضربة القاصمة التى وجهها اليه « كلاى » ولكن الدكتور أحمد كمال زكى لا يزال الى اليوم يترنح من أثر الضربة القاصمة التى وجهناها اليه على صفحات الرسالة بعنوان « كيف نفهم الحقائق الشعرية ؟ » لقد مضى عليها قرابة شهر ، ولكنه كلما عاود النهوض عاوده السقوط، ولا أدل على ذلك من مقاله المتهافت المنشور فى عدد ٣ يونية سنة ١٩٦٥ من الرسالة الغراء بعنوان « رفقا بالشعر »

ان هذا المقال ان دل على شىء فانما يدل على ما لا يزال يعانيه من أثر الصدمة الى الآن ، فهو سلسلة من السقطات متصلة الحلقات ، يأخذ بعضها برقاب بعض ، والى القارىء الكريم بعض ما يتسع له المقام من هذه السقطات .

السقطة الاولى : يقول ـ عفا الله عنه ـ ما نصه : « أتحدث عن الشعر لا فى حدوده العامة ، وانما فى حدود قصيدة واحدة لفتت نظرى الى أمور هى فى حقيقتها آفة الفن المعاصر كله ، وهذه القصيدة التى لفتت نظره الى آفة الفن المعاصر كله : اى التى اعتبرها وباء نشر سمومه وضلاله فى محيط الفنون جميعها ـ والعياذ بالله ـ هى قصيدة الوحدة العربية المنشورة فى عدد الهجرة الممتاز من الرسالة بعنوان « رب واحد وشعب واحد » .

ونحن نعلم أن لفت النظر عادة انما يكون الى أمر من شأنه الخفاء عن عيون الناظرين ، ونعلم بجانب ذلك أن الناقد البصير ينبغى أن يكون على بينة من آفات الفن الذى يتصدى لنقده ، بل على بينة من الهفوات الدقيقة التى تغض من جماله .
واذا علمنا هذا وذاك كان من حقنا أن نتساءل : « ما قيمة هذا الناقد الذى تخفى عليه آفات الفن المعاصر كله ، حتى تنبهه اليها قصيدة واحدة ؟ وأية قصيدة تلك التى أسدت الى الفن المعاصر كل هذه الخدمات بما كشفته فى محيطه من الآفات ؟ ثم ما معنى الفن المعاصر كله ، بأل الاستغراقية مع التوكيد بكلمة كل ؟ نحن فى مقام نقد الشعر ، والقصيدة المشار اليها فى فن الشعر وحده ، فما شأن النحت والتصوير والموسيقى والتمثيل وغير ذلك من الفنون ؟ لنفترض أن القصيدة من فرعها الى قدمها كانت ضربا من الهذيان ، فكيف يتجاوز مفعولها هذا النطاق ، ويمتد الى كل هذه الآفاق ؟

الحق : أقول ليست القصيدة ضربا من الهذيان ، ولكن هذا الكلام بعينه هو الهذيان .

• **السقطة الثانية** تتجلى فيما أبداه ـ حفظه الله ورعاه ـ من عجب سببه أن فسحت مجلتا الرسالة والثقافة صدريهما لنشر قصيدتين من قصائدى ، والمجلة الأولى يشرف عليها ـ كما يقول ـ ناقد ذواقة وكاتب كبير ، ويقف الى جانبه أحد شعرائنا المطبوعين ، وكذلك المجلة الثانية يشرف عليها رجل له فى مجال الأدب صولات وجولات ، ومعه أيضا أحد شعرائنا المطبوعين .

وهذا الكلام غنى عن كل تعليق فهو ضرب من الاستعداء الرخيص ، والاستعداء أمارة الضعف والاستخذاء ، فمن ياترى سيستعدى علينا فى المستقبل اذا خذله هؤلاء ؟ أرجال الأمن أم رجال القضاء ؟ ثم ما رأى القارىء الكريم فيما تضمنه هذا الكلام من اطراء مبتذل ؟ قد يكون ما قاله صحيحا، ولكن ذكره فى هذا المقام لا يعدو أن يكون ضربا من الملق الرخيص الذى تاباه كل الاباء أخلاق العلماء ٠

كانت هاتان السقطتان وحدهما كفيلتين بأن نتردد فى معاودة الرد ، فنحن نحب أن يصدر القرن الذى ننازله فيما يجرى به قلمه عن تفكير سليم وخلق قويم ، وقد ترددنا فعلا لولا أن وجدنا فى المقال طائفة من الأخطاء ربما خفيت على بعض القراء

السقطة الثالثة ـ وهنا ندخل فى لب الموضوع ـ تتجلى فيما كتبه عن مطلع القصيدة الموبوءة

الله أكبر شعب قام شاعره
يشدو فانصت فوق الأيك طائره

قال ـ لافض فوه ـ : انه بهذا البيت جعل نفسه شاعر الشعب الأوحد ، كما جعل قاسم العراق نفسه زعيم الشعب الأوحد ، فمن الذى بايعه ؟ ان المبايعة هنا من طرف واحد ٠٠ الخ ٠

وهنا يتجلى مبلغ فقه الدكتور لقواعد البلاغة مرة أخرى بعد أن كشفنا عنه الستار فى المقالة السابقة، فقد فهم أن اضافة كلمة شاعر الى الشعب ، أو الى ضمير الشعب بتعبير أدق ـ تفيد معنى القصر بدليل قوله : « جعل نفسه شاعر الشعب الأوحد كالزعيم الأوحد قاسم العراق » ونحن نتغاضى عن اقحام قاسم العراق هنا وما ينطوى عليه من تفاهة واسفاف فى مقام الجد والنقاش العلمى ، ولكننا نقول له فى تواضع : ان هذه الاضافة لا تفيد معنى القصر ، فللقصر طرق اربعة يعرفها المبتدئون ، وليس منها طريق الاضافة ، بل نزيد على ذلك أن المفرد المضاف يعم كما تقضى بذلك أساليب اللغة العربية ٠ واذا تقرر هذا كان معنى « شاعر الشعب » مجرد شاعر من الشعب ان أردنا المفرد ، فان أردنا الجمع كان معنى البيت أن شعب العروبة حين يتغنى شعراؤه بامجادها تنصت الطيور على أعوادها ٠

فأين الأوحدية هنا ؟ وأين المبايعة من طرف واحد أو من طرفين ؟ وأين ما رتبه على هذه وتلك من تهكم واستخفاف ؟ لقد نسب الينا ما نحن منه براء ، وحمل البيت مالا يحتمل ، ولا سبب لذلك كله الا قصوره فى مادة تخصصه ، فمن حقنا أن نقول له ما قال المرحوم مصطفى صادق الرافعى فى مثل هذه المناسبة : « أبو الطيب المتنبى يسلم عليك ، ويقول لك :

وكم من عائب قولا صحيحا
وآفته من الفهم السقيم

على أننا لا ندع مسالة المبايعة هذه تمر بسلام ، فان لها أصلا واصلا راسخا لا فى شعرنا نحن ، بل فى رأسه هو وما فيه من رواسب ذهنية ، فالواقع أنه حين تصدى لنقدنا كانت الجوائز الأدبية التى أحرزناها تتركز فى بؤرة شعوره ، وهو نفسه يصرح بذلك فى مقاله الأول حيث يقول : « نبدأ بنقد شاعر طالما أحرز الجوائز الأدبية » والجوائز تحمل معنى المبايعة ، وهذا هو السر الذى جعله يخطىء فهم البيت ، وينزلق الى ما انزلق اليه ، وساعده على هذا الخطأ رقة علمه بقواعد البلاغة التى يقوم بتدريسها لطلاب الجامعة ـ كان الله فى عونهم ٠

ونعود فنقول له بكل جرأة أو بكل تبجح ان شاء : وماذا علينا لو سلكنا سبيل الشعراء فى تفاخرهم باشعارهم وتغاليهم فى أقدارهم ؟ قديما قال المتنبى :

أجزنى اذا أنشدت شعرا فانما
بشعرى أتاك المادحون مرددا
ودع كل صوت غير صوتى فاننى
أنا الطائر المحكى والآخر الصدى

وقال غيره :

انى وكل شاعر من البشر
شيطانه أنثى وشيطانى ذكر

ومن حقنا أن نقول مثل هذا الكلام ، وفوق هذا الكلام ، وأنف الناقد فى الرغام ٠

وقبل أن ننتقل من هذا الموضوع ننبه الأستاذ الى أنه أسقط لفظ الجلالة من ختام القصيدة ـ وربما كان بريئا من هذا الذنب ـ وصحة البيت :

سيف العروبة سيف الله أنت ولن
يفل سيف اله العرش شاعره

ثم ننتقل الى سقطة لغوية كفيلة باسقاطه لا من عداد النقاد ، بل من عداد الناطقين بالضاد ، وذلك حين يقول ـ نفعنا الله بعلمه ـ انى أخطأت فى استعمال كلمة «فترة» بمعنى مدة ، وانما الفترة الضعف والانكسار ٠ أفما كان الاجدر بمن يعرض عقله وعلمه على الجمهور فى مجلة سيارة أن يتناول معجما كالمعجم الوسيط ، ليكشف فيه عما يخطئنا

فى اســتعماله ؟ ان كان اهمــل الكشـف فهو ذنب لايغتفر ، وان كان كشـف ولم يفهم كان ذلك ادهى وامر ، ولا ثالث لهذين الاحتمالين ، ونص ما ورد فى هذا المعجم : «الفترة الضعف والانكسار ، والمــدة تقع بين زمنين ، قال تعالى : «ياأهــل الكتاب قــد جاءكم رسـولنــا يبين لكم على فترة من الرســـل» ولانريد أن نتشكك فى مبلغ علم الناقد بالاشـــتراك والترادف فى مفردات اللغة العــربية ، فليس اللفظ الواحد يؤدى معنى واحدا فى جميع الأحوال ، ومن الاوليات أن ننبه الى أن كلمتى «العين والخال»مثلا يؤديان عشرات المعانى ، بل قد يصل الاشتراك الى حد الدلالة على النقيضين ، كما فى كلمتى «الجليل والغابر » فان أراد مزيدا من الدروس التى يضيق بها ذرعه قلنا له : ان أصـل الفترة مدة الانقطاع التى بين رسولين ، ثم توسـع فى اسـتعمالها حتى أطلقت على كل مدة بين زمنين ، كما فى المعجم المشار اليه، ولا اخاله يجهل باب التوسع فى الاستعمال اللغوى، وهو باب واسـع يكاد يقطع بين ماضى بعض الالفاظ وحاضرها ، فلو بعث امرؤ القيـس من قبره اليــوم ما فهم من كلمة الثقافة ما نفهمه نحن منها اليوم ، فهو لم يعرف من هذه المادة الا « الثقاف » اســما لآلة تعدل بها الرماح المعوجة ، ثم توسـع فى اسـتعمال كلمة الثقافة لكل مايعدل العقول من علوم ومعارف .

لم يلج فى هذا الباب ماشاء له اللجاج ، فيخطئنا فى كلمة «الديتونة» من قولنـــا «ندين كل الديتونة بكذا » الا فليعلم أن الديتونة والسيرورة والصيرورة والشيخوخة والقيلولة والديمومة وما اليها لم تخرج عن كونها مصادر مسـموعة من دان ، وسار ، وصار وشاخ ، وقال يقيل ، ودام ، وليعلم ان المصدر الاول منها من دان بمعنى اعتقد او افترض ، والعبــارة ســليمة على كلا الاعتبــارين ، اذ المعنى نعتقد كل الاعتقاد بكذا ، او نلتزم به التزام المدين بمـــا فى ذمته من دين .

ومن حقنا بعد ذلك ان ننصح الدكتـــور بعــدم سـلوك هذا الطريق الشـائك وبان يتهم نفـــه حين تعرض له شـبهة لغوية فيمانقول ، وحســبه مايتشدق به من العبارات الجوفاء التى يرددها فى كل مقـــال من نحو قوله : «ان الشـعر يزيد معرفة الانســـان بالانســـان» وهل النثر يزيد معرفة الحيوان بالحيوان؟ وحسـبه مايملأ به فاه فى زهو واعجاب من الاعلام الاجنبية من امثال «وردزورث» شاعر الطبيعة الذى يقرر بعبقريته الفذة ان الشـاعر بشر يتحـدث الى بشر ، وهل فرد بائع الفاكهة ، أو تاجر ماشية ان الشاعر جماد يتحدث الى جماد ؟

ثم يصل بعد ذلك الى اكتشاف لم يصـــل اليه « كولب » حينما اكتشف ان الخليل بن أحمد بصرى لا بغدادى ، ونحن نعرف انه ليس بصريا فقط ، بل شيخ علماء البصرة ، ولكن هذا لا يمنع انه من مفاخر بغداد حين تعدد مفاخرها ، ولايمنع ان ننسبه اليها على اعتبار انها عاصـمة العراق التى تـذوب فيها كل حواضره وقراه ، وذلك على نحو مانقـرأ : «تقول لندن كذا» ولو كان المتحـدث من ويلز ، أو من اسكتلندة ، وعلى نحو مانقول : « ان القاهرة انبتت محمد عبده والعقاد» مع ان الاول من محلة نصر والثانى من اسوان ، وعلى نحـو مانقول : «ان القاهرة تصنع السكر وتصدره » ومصانع السكر فى الحوامديه وكوم أمبو وغيرهمـــا ومااردنا بقولنا : «ان الخليل بغدادى لحما ودما» الا أن نؤكد هذا المعنى ، وننفى شـبهة ان بصريته تنافى انه من مفاخر بغداد ، كنا نفهم أن يخطئنا فى نسبة الخليل الى بغداد حينما يكون شـاميا أو مغربيا او من بلاد واق الواق لا من بلاد العراق . والامر فى ذلك اهـون من ان نـــستفتى فيه اكبر المصادر التاريخية كما يشير علينا فى مقاله الممتع الحافل بمحاضرات ضـــافية فى علمى التـــاريخ والجغرافيا .

اما فى علم التاريخ فقـد اقحم فى مقـاله بدون مناسبة محاضرة اطول من ليل الشتاء على العاشق الصب ، موضوعها التفرقة بين العرب سكان الحضر والأعراب سكان البادية ، ويفيض علينـــا من علمه الغزير الذى تفهق به كتب التـــاريخ ، فيقــرر ان [illegible] تعنى الخشونة فى المعاش ، حتى قيل فى الامثال « اخشوشنوا وتمعددوا » وان الفيلولوجيين يرون ان هذا اللفظ لايعنى الا البدو والاعراب فقط ثم يستطرد المحاضر الى ذكر قريش وخزاعة وكنانة ونسب كل قبيلة من هذه القبائل مستشهدا برأى الدكتور جواد فى كتابه القيم «تاريخ العرب قبــل الاسلام » الى آخر ماذكره فى هذا الصدد ممالااريد ان أصدع به راس القارىء مرة اخرى .

الم أقل : ان الدكتور آفته التعالم ؟ أتدرى ايها القارىء الكريم مامناسـبة هذا كله ؟ انها تنحصر فى هذين البيتين المشهورين :

شــعب من البيد ظهر العيس مركبه
أطاعــه الــكون باديه وحـــاضره

« البقية على صفحة ٣٤ »

فى ذكرى الشابى

للشاعر : صالح جودت

لم ينفر الوحى ولم يغرب   عن قمة الالهام فى يعرب
من زعم الشعر انتهى عهده ؟   كم جاء بعد المتنبى نبى !
شوقى .. وهل شوقى سوى سورة   فى محكم التنزيل لم تكتب
لينعم الشعر بآياتها   وتعمر الفصحى على الأحقب
وشاعر النيل الذى هزنا   بشعره المستعر الملهب
اشعلها فى دمنا ثورة   وقودها الغاصب والأجنبى

***

وشاعر القطرين ، من جاءنا   بكل قول مؤنس معجب
علمنا الرقة فى اوجها   والحب فى اسلوبه المذهب
قد رضى الوحى على قومنا   واتبع الكوكب بالكوكب
ان غاب عن مشرقنا شاعر   تالق الشاعر فى المغرب
هيهات ننسى لابوللو يدا   ياما سقت من غيثها الصيب
مرت على مطلع أيامنا   ونحن كالحبات فى الطحلب

***

فقربت منا بعيد القرى   واطلعت منا زهور الربى
وكان فينا وتر ساحر   يخطر فى برد الصبا الأقشب
صلاته للحسن صوفية   فى هيكل الحب ، كنجوى نبى
ما علموه الشعر .. لكنه   لالاه من روحه الطيب
منغم اللفظ ، جديد الرؤى   ينساب من عذب الى أعذب
وآية التجديد أن تلتقى   حلاوة الصنعة والموهب

***

وتطلع الصورة مجلوة   باللحن فى ايقاعه الخلب
لا أن يخون الشعر ميزانه   ويغرق المبنى فى المعرب
ويفقد النظم تقاليده   ويصبح الشعر بلا مذهب
قم يا أبا القاسم واسخر معى   من قصة الخضرم والثعلب
من الألى سدت مزاميرهم   فاعرضوا عن شعرنا المطرب

اضحك من الشعر الجديد الذى ... لم ندر من أم له أو اب
من الألى اختلت موازينهم ... فاستبدلوا الميزان بالعقرب
لووا عمود الشعر حتى انحنى ... وسار بين الناس كالأحدب
مهلهل الجرس ، لقيط الجنى ... لم ينم للعرب ولم ينسب
فشطرة تخلص فى كلمة ... وشطرة تمتط كاللولب
وفكرة صفراء صينية ... وفكرة حمراء كالصقلب

***

فما استقام الشكل من عورة ... ولا خلا المضمون من مثلب
ان كان هذا شعر أيامنا ... فيا ضياع الشعر فى « يعرب »
عفوا أبا القاسم ، ان لج بى ... حديثهم فى يومك الطيب
وأنت من بالبحر فى عمقه ... وبالقوافى صعبة المطلب
غنى الجبال الخضر الحانه ... وأطلق النايات فى السبسب
وضاء بالحب ستار الدجى ... وأطلع الزنبق فى المجدب

***

وزف بنت النور أنشودة ... نشوانة الأنغام فى الموكب
أطلعها تختال فى ملكها ... كأنها بلقيس فى « مأرب »
والتفت الشرق له هاتفا ... يا عجبا من سحر هذا الصبى
فى ميعة العمر واشراقه ... يرنو الى عرش « أبى الطيب »
عاش ، وما عاش ، فما عمره ... الا كعمر الورد ثم يسهب
ومات ، لا بل عاش فى موته ... كما يعيش الدين بعد النبى

***

وعاشر الدنيا على رقة ... لم يحف بالجاه ولا المنصب
بل عاش للشعر وأقداسه ... ينزفه من قلبه المتعب
ويوغر الشعب على طغمة ... تحتمل الأوزار كالمشجب
ويبعث الصيحة فى قومه ... أن ينفروا من غفلة الغيهب
ان غضب الشعب على قيده ... فانه سيف النصر للمغضب

« صالح جودت »

« بقية المنشور على صفحة ٣١ »

من علم البـدوى المـاء يركبـه
فـراح يمخـر لج البحـر ماخـره !

فماذا يريد أن يقول ؟ أتراه ينكر أن الشعب العربى ولا سيما قبل الاسلام يغلب عليه طابع البداوة؟ أتراه ينكر أن سفينته المفضلة كانت الجمل ، سفينة الصحراء ؟ أتراه ينكر أن الاسلام كون من هذا الشعب اسطولا بحريا غزا بحر الروم حتى جعله بحيرة عربية ، ثم واصل الغزو حتى وقف على أسوار القسطنطينية ؟ كل هذه معلومات مسلمة الثبوت ، لا تقبل النقاش ، وحسبنا هذا حتى تتحقق سلامة البيتين • أما أن العرب كان منهم حضريون يسكنون المدن ، وأن بعضهم عرف البحر معرفة نسبية فهذا لا يقدم ولا يؤخر فى الموضوع ، ولا يقدح قيد أنملة فى البيتين • فان شاء أن نزيده مددا من المعرفة فى هذا الصدد قلنا له : ان الشعب العربى ، بل ان عمر نفسه كان يخشى ركوب البحر، وقد طلب منه عامله على مصر بناء عمارة بحرية يغزو بها بحر الروم، فلما وصف له البحر بالقطعة المشهورة « انى رأيت خلقا كبيرا يركبه خلق صغير، هم فيه كدود على عود.. الخ» قال : « والله لا حملت فيه مسلما » وهكذا ظل العرب يرهبون البحر الى ما بعد عهد عمر ، فبنيت السفن ، وبلغت العمارة البحرية أوجها فى عهد معاوية ، فماذا يريد الأستاذ منا بعد ذلك؟ مرة أخرى ندعوه الى تفهم الحقائق الشعرية ، والى التفرقة بين الشاعر ومدرس التاريخ •

وأما فى علم الجغرافيا فقد ألقى الدكتور الناقد ـ نفعنا الله بعلمه ـ درسا آخر أطول من ليل النابغة فى نشأة الفصول الأربعة وما الى ذلك مما يتعلق بالاعتدالين والانقلابين بسبب ميل الأرض على مستوى فلكها بزاوية مقدارها ٢٣٫٥ درجة تقريبا الى آخر ما ذكره فى هذا الصدد مما درسناه صغارا وذلك كله بسبب بيتين مشئومين آخرين ، هما :

قالوا الربيع فقلت العدل شيمته
لا فى النهار ولا فى الليل نقصـان
تعـادل الليل فيه والنهـار معـا
كأنمـا هـو للأيام ميـزان

وهو يأخذ علينا أن التعادل لا يتحقق الا فى أول أيام الربيع ، وهذا حق . بيد أننا نقول له : اننا حين نتكلم عن الربيع نتكلم عن مقدمه ، فهو الذى يشيع البهجة ، ويهز المشاعر ، وفى مقدمه هذا يتعادل الليل والنهار ، ثم يكونان أقرب الى التعادل، وهذا يكفى لتحقق سلامة البيتين •

هذه نظرة الشاعر الى الربيع ،وهى غير نظرة العالم الفلكى اليه ، فالثانى يقيس أبعاد الزيادة والنقصان بين ليله ونهاره فى كل يوم من أيامه بالدقيقة والثانية طبقا لتنقل الشمس فى أبراجها • وقد بح صوتى من دعوة الدكتور الى التفرقة بين نظرة الشعر الى الشىء ونظرة العلم اليه ، ولكن يظهر أن المسالة ما زالت فى حاجة الى مزيد من الشرح •

ان الشعر يتغنى مثلا بجمال الربيع ، ولكن العالم الفلكى قد يجرده من كل جمال ، ويعتبره أقسى فصول العام بالنسبة للأصقاع الواقعة فى منطقة خط الاستواء حيث تتعامد الشمس على تلك البقاع عند حلول الربيع ، فتصليها حرا يذيب دماغ الضب ولعل ربيع هؤلاء يقع فى الانقلاب الصيفى حين تتعامد الشمس على مدار السرطان ، أو فى الانقلاب الشتوى حين تتعامد على مدار الجدى • فهل من أجل هذه النظرية العلمية نخطىء كل ما قيل من الشعر العربى والشعر الغربى فى التغنى بجمال الربيع ؟

وان الشعر يتغنى بجمال الزهر فى الربيع نفسه، ولكن عالم التاريخ الطبيعى يحذرك من الزهر كما يحذرك من الأفاعى والصلال ، فهو فى أثناء الليل يمتص الأوكسوجين من الهواء ، وينفث ثانى أوكسيد الكربون الذى يفسده ، ومن هنا كان النوم فى الحدائق قد يسبب الاختناق ، والى ذلك يشير شوقى بقوله :

لا تحفل بجناهـا أو جنايتهـا
الموت بالزهـر مثل الموت بالفحم

وان الشعر يتغنى بقبلة من خد الحبيب ، ورشفة من شفتيه ، ولكن الطب يحذرك من الأولى لأنها تنقل العدوى ، ويحذرك من الثانيـة لأن رضاب الحبيب تفرزه غدد خاصة لا ليمتص رحيقه ، بل ليسهل عملية ازدراد الطعام ، ويحيل ما فيه من نشويات الى مواد سكرية ، ثم هو لايفرق بين رضـاب الكاعب الحسناء ولعاب الحيزبون الشوهاء ، على حين يجعل الشاعر الأول سلافا ، والثانى سما زعافا •

وقل مثل ذلك فى جمال القمر والماس مثلا ، فالعلم لا يرى فى الأول أكثر من جسم معتم يمتلىء سطحه بالصخور والوحول ولا يرى فى الثانى أكثر من حجر يتكون فى باطن الأرض بنفس الطريقة التى يتكون بها الفحم •

ولكن الحقائق الشعرية تتنامى تلك الحقائق العلمية، وتتسع للتغنى بكل ما تقدم ، كما تتسع لمثل قول الشاعر :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم
قوم لقيل اقعدوا يا آل عباس

على حين يقول لك العالم الفلكى : ان بيننا وبين الشمس ٦٢ مليون ميل ، فكيف يتسنى الصعود ؟ ولو تسنى الصعود ما تسنى القعود ، لأن الشمس كتلة غازية ملتهبة . وفى مثل هذا البيت يقف الشعر والعلم موقفين متناقضين ، يراه الأول مديحا، ويرى فيه الثانى القاء الممدوح بين أحضان الجحيم

ولعل الدكتور بعد ذلك يعيد النظر فى معايير نقده ، كما نرجو ان يعيد النظر فيما اتهمنا به من تفتيت وحدة الامة العربية لاننا اشرنا الى الانطلاقة الثورية فى كل شعب من شعوبها على حدة . أين التفتيت – يرحمك الله – ؟ اذن فقد فتت القرآن الكريم هذه الوحدة حين قال : « والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان » واذن فنحن نفتت الجمهورية العربية حين نتكلم عن نشاط محافظاتها محافظة محافظة ، واذن فنحن نفتت فريق الكرة ، ونقطع حباله ، ونمزق أوصاله حين نتكلم عن نشاط افراده ، فنذكر كيف كان موقف الظهير الايمن ؟ وكيف كان موقف الظهير الايسر ؟ ثم موقف حارس المرمى وقلب الهجوم . انا لا ندعو الدكتور هنا الى فهم الحقائق الشعرية ، بل ندعوه الى فهم الحقائق المجردة ، والى استعمال أبسط قواعد المنطق .

ومن حق القارىء الكريم علينا بعد أن صدعنا رأسه بهذه المهاترات أن نروح عنه بقصة طريفة نتخلص فيما يلى : حينما اشتدت حملة الاستاذ فى المقال السابق على قصيدة « تحية بغداد » قلنا له : كيف تقابلها هذه المقابلة، وقد قوبلت فى العراق بغير ذلك ؟ وهنا أوردنا نص المقدمة الضافية التى قدمت بها جريدة الايام اليومية التى تصدر فى بغداد هذه القصيدة ، فهل تدرى كيف رد الدكتور على ذلك ؟ قال – حفظه الله – : وأنا أيضا كتبت عنى جريدة الهاتف العراقية منذ اثنى عشر عاما كيت وكيت ، قد يكون ما قلته صحيحا ، ولكن مامناسبته الآن ، نحن ذكرنا لك رأى الجريدة فى القصيدة التى نشرحها فى نفس الاسبوع الذى حدث فيه التشريح، فما مناسبة ما كتبته عنك صحف العراق من اثنى عشر عاما حين : كنا نسمع من احدى عجائز الحارة ان مناديا نادى : ياعبد الله ، فقال له احد السامعين: من تعنى ، فكلنا عبيد الله ، واتفق ان مناديا آخر نادى : ياحمزة ، فقال سامع آخر : من تعنى ، فكلنا حمامير الله . هذه من تلك .

ثم لا يكتفى الدكتور بذكر هذه « الفزورة » فيشفعها بسؤال عجيب : اين كان هو فى ذلك الوقت ، اى فى سنة ١٦٥٢ ان لم اخطىء الحساب، والجواب عند الصحف الادبية ، المحلية منها والخارجية ، وعند الهيئات العلمية ، وفى مقدمتها مجمع اللغة العربية ، فهذا المجمع يستطيع ان يجيبه على هذا السؤال قائلا : كان فى ذلك الوقت قد مضت ست سنوات على منحه جائزة الشعر الاولى عن ديوانه « صرخة فى واد » فى اول مسابقة عقدها المجمع لشعراء العربية سنة ١٩٤٧

ولسنا نريد أن نتعقبه فى كل ما كتب ، فشرح ذلك يطول ، وحسبنا أننا سلطنا الاضواء على بعض العيوب التى اعتبرها « آفة الفن المعاصر كله » ولسنا نردد هنا القول المأثور : « ان الناقد أديب فاشل » ، ولكن الذى نقرره أنه ليس لناقد كائنا من كان – أن يخضع الشاعر لسلطانه ، ويرغمه على اسلوب معين من التعبير ، فان الشاعر الحق ينقد نفسه قبل أن ينقده غيره ، فكل شاعر ناقد ولا عكس .

ولا ننسى أن نوجه شكرنا الى الدكتور على كلمة انصاف ندت منه حين يقول : « ولا يمكن فى الحقيقة تجاهل شعر الطبيعة عند محمود غنيم ، ولا سيما اذا وصف الريف » ولكنه فى هذه المرة امسك عن ذكر ما استحسنه من الابيات ، فهل خشى أن نهجن نحن ما استحسنه هو ، كما فعلنا فى المرة السابقة؟ ان كان الامر كذلك فليطمئن قلبه ، وليذكر ماشاء من أبيات الاستحسان ، وله منا الأمان .

ثم يختم مقاله بتهديد تصطك له الاسنان ، وتقشعر له الابدان ، وذلك حين يتوعدنا بنقد مسرحيتنا الشعرية « النصر لمصر » ولا يسعنا الا ان نقول له : جرير يقرئك السلام ، ويخصك بالتحية والاكرام ، ويطالبك بتنفيذ الوعيد « يافرزدق العصر الجديد .

« محمود غنيم »

الحرية .. فى الأسرة المسلمة

بقلم : محمد جلال كشك

- ٢ -

ناقشنا موقف الاسلام من الحرية ، أو ان شئت وضع الحرية فى ظل النظام الاسلامى الخالد .. ورأينا كيف أن العقل الاسلامى ، هو العقل الحر ، وان حرية الفكر فى الاسلام قد بلغت ذروة ، لم تصل اليها فلسفة من قبله ، ولا قاربها نظام حتى اليوم .

واليوم نناقش الحرية فى اطار المجتمع الاسلامى بادئين بالأسرة باعتبارها الخلية الأولى التى تكون المجتمع البشرى .

ولأن حرية الارادة هى أول صفات المسلم ، لذا تقوم الأسرة الاسلامية ، على مبدأ الاختيار الحر ، وبالارادة الانسانية .. فزواجنا على الارض يعقد ، وبارادتنا يبقى ، أو ينفصم .

الاسرة الاسلامية تقوم بارادة حرة لطرفين متكافئين . وتستمر بالرغبة المشتركة التى تجمع بين أطرافها المتساوين .. وتنفصم بالارادة الحرة .

فالأسرة تقوم ابتداء بالارادة الحرة للرجل والمرأة .. ولا اظن أن ثمة من يجادل حول حق الرجل فى اختيار زوجته ، ولو أن ملك انجلترا نفسه قد حرم من حقه فى اختيار زوجته .. وكان عليه ان يدفع عرشه ثمنا لحرية الاختيار ، مما يثبت ان الرجل الأوروبى ذاته لم يتحرر على أية حال فان معظم الجدل يدور حول حق المرأة فى اختيار زوجها .. ويقتضينا الانصاف الرجوع الى المصادر الاسلامية ، لا أن نقف عند عصور التخلف للحكم بها على مركز المرأة .. اذ ليست المرأة وحدها هى التى فقدت حقوقها فى هذه العصور ، بل حتى الخليفة يتحسر عليه الشاعر لأن الدنيا تؤخذ باسمه وليس له من الأمر شيئا .

البحث الجدى يجب أن يمتد الى روح الاسلام ،والى النظام الاسلامى فى أكمل تطبيقاته .. لأن التخلف يترك بصماته على كل شىء من العلاقات العائلية الى الصناعة .

فاذا رجعنا الى المصادر الاسلامية الأولى ، رأينا أن الاسلام ، لم يترك مجالا للشك فى حق المرأة الكامل فى اختيار شريك حياتها .. منذ أن ذهبت تلك الفتاة الرائدة الى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، تحتج على اختيار أبيها ، فأبطل عليه الصلاة والسلام ، عقد الزواج الذى ابرمه أبوها .. وهنا قالت الفتاة : « لقد وافقت على من اختاره أبى . انما اردت أن تعرف النساء ،ان ليس للآباء من الأمر شىء ! » .

هذه القضية ثارت وصدر الحكم فيها ، الذى أصبح مبدأ ملزما للمسلمين لأنه سنة نبيهم منذ ١٤ قرنا .. فهل لا بد من قبول قوانين التطور المادى والفكرى وقبول القيم المادية والفكرية التى انبنت عليها الحضارة الغربية الحديثة ، حتى نعود لقيم اسلامنا وعروبتنا ؟ .. هل لا بد أن تصبح فلسفة لطفى السيد « تمتد جذورها الى تربة غير عربية ولا اسلامية ، وانما ينبوعها غربى ومدنى زمنى » !

لا .. لا حاجة بنا الى التخلى عن قيمنا أو أن نقطع جذورنا العربية الاسلامية .. بل حسبنا ان نعيد لهذه القيم قدسيتها وفعاليتها .

فاذا تزوجت المرأة ، احتفظت بشخصيتها كاملة ، تحتفظ باسمها واسم أبيها ، وأحيانا تدلل بالكناية ، فتدعى باسم ابنها اعزازا وتكريما لا تحرجا من ذكر اسمها كما فهم « سلامة موسى » أو بالأحرى، كما روج !

وحتى اليوم تلحق المرأة ، فى الحضارة الغربية ، بزوجها .. لا اسما فقط بل تفقد كل حقوقها فى

ملكية ثروتها ، ولا حتى حق ادارتها ٠٠ ويحدثنا « برناردشو » عن هذا الوضع بقوله : « فى اللحظة التى تتزوج فيها المرأة ، تصبح جميع ممتلكاتها ملكا لزوجها بمقتضى القانون الانجليزى » ٠

ثم يشرح كيف احتالوا على هذا القانون « بابتكار خدعة قانونية بارعة لتسوية النزاعات الزوجية فى هذا الصدد فامكنهم أن يحتالوا لحفظ حقوق المرأة بنقل ممتلكاتها قبل الزواج الى شخص أو أشخاص وهميين ، أو لم يولدوا بعد ، وبهذه الطريقة تصبح معدمة تماما ، ولكنها تستمر فى الحصول على دخلها من ممتلكاتها طول حياتها ، وهكذا لا يتاح لزوجها ان يبدد اموالها كما يشاء ٠ ثم مضى زمن واضطرت الطبقة الوسطى ، البرلمان ، الى اصدار قوانين ملكية النساء المتزوجات لحماية حقوق المرأة فى « ممتلكاتها »٠

وينص القانون الفرنسى : « لا يجوز للزوجة ان تهب ولا أن تنقل ملكيتها ولا أن ترهن ولا أن تملك بعوض أو من غير عوض بدون اشتراك زوجها فى العقد أو موافقته موافقة كتابية » ٠

وفى الاسبوع الثانى من شهر مارس ١٩٦٥ سجلت صحيفة « وطنى » المصرية نصرا آخر احرزته المرأة الفرنسية قالت ان وزير العدل الفرنسى قد ادخل تعديلا على القانون المدنى ضمن به كسب أصوات النساء فى الانتخابات البلدية ٠ قالت الصحيفة : « وحازت المرأة نصرا آخر ، هو حقها فى ممارسة العمل ، دون حاجة الى موافقة زوجها ، وان تتمتع بمرتبها ، وتشترى وحدها بالتقسيط ، وان يكون لها حساب خاص فى البنك ٠ وحقها فى التوجيه المدرسى لابنائها دون المساس بحقوق الاب على ابنه ٠ وكذلك حقها فى التدخل لاختيار مسكن الزوجية » ٠

هذه الانتصارات ، وهذه الحقوق ، فى اسرتنا المسلمة منذ ١٤ قرنا ٠٠ هل ذنبنا اننا تفوقنا على الدنيا بديننا ؟! هل يجب أن نثير عجيجا وضجيجا حول تحرير المرأة المحررة فعلا من ١٤ قرنا لمجرد أن نتشبه بأوروبا ؟!

ولا شك أن أنصار التفسير المادى ، يسلمون ان هذا التحرر الاقتصادى الكامل للمرأة يخلق أساس حريتها ، وهذه المساواة المطلقة فى الحقوق الاقتصادية تشكل قاعدة المساواة الاجتماعية ٠٠ ولكننا لانقف عند العامل الاقتصادى وحده ٠٠ فنسأل :

ماهو الأساس فى فقدان المرأة مركز الند للرجل ؟

ما الذى جعل أفلاطون يشكر الآلهة على أنها خلقته حرا ، لا عبدا ، ورجلا لا امرأة ! ٠٠

والقديس أوغسطين يرى : « ان المرأة ، يجب أن تعتبر قاصرا ، حتى وهى متزوجة وأم ٠ لأن المرأة دابة أو مخلوق لاحزم فيه ولا ثبات على رأى » (الهلال مارس ١٩٦٥)

وتعلن سيمون دى بوفوار كشفا مذهلا قائلة : « ما من شك فى أن المرأة بشر كالرجال ! »

لماذا كانت الحضارة الغربية من يونانها الى يومنا هذا ، تقوم على انحطاط مركز المرأة ، بينما لا يوجد هذا الاحساس فى الحضارة الاسلامية ؟!

ان انحطاط مركز المرأة فى الحضارة الغربية ، وعبوديتها ، ومن ثم احتياجها الى « حرب تحرير المرأة » ينبعث من عقيدتين ، هما بعكس أهميتهما : فكرة الخطيئة الأولى ٠٠ والنظرة الى الجنس ٠

فكرة الخطيئة الأولى ، تحمل المرأة مسئولية شقاء الجنس البشرى ، فهى التى غرر بها الشيطان ، وهى التى تولت اغراء الرجل ٠٠ فكانت الخطيئة الأولى التى رزح تحتها البشر ٠٠ وطردوا من الجنة حيث لا شقاء ولا متاعب ٠٠ ولا جنس فى رأى ترتوليان : « فلو كان آدم لم يعص ربه ، لعاش طاهرا حصورا ، ولتكاثر النوع الانسانى بطرق غير هذه الطرق البهيمية » ٠

والعهد القديم صريح وواضح فى تحميل حواء مسئولية هذه الخطيئة الفادحة :

« فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل ، وانها بهجة للعيون ، وان الشجرة شهية للنظر ، وأخذت من ثمرها وأكلت ، واعطت رجلها أيضا معها فأكل » ولما سأل رب التوراه آدمها هل أكلت من الشجرة التى أوصيتك الا تأكل منها ، وشى آدم التوراه بزوجته : « المرأة التى جعلتها معى هى التى اعطتنى من الشجرة » ٠ وفى العهد الجديد « ان آدم لم يغو ، ولكن المرأة اغويت فحصلت فى التعدى » ٠

اما فى الاسلام ، فالآيات التى أشارت الى حديث الشجرة ، تحمل المسئولية للطرفين بلا تخصيص ، الا فى آية واحدة ، ينفرد فيها آدم بالمسئولية ، وتلقى الكلمات التى غفر الله بها لآدم وزوجه ٠

« فازلهما الشيطان عنها فاخرجهما مما كانا فيه »

« فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما وورى عنهما من سوآتهما » .

« فوسوس اليه الشيطان ، قال يآدم هل أدلك على شجرة الخلد ملك لا يبلى ، فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وعصى آدم ربه فغوى .. » .

فلا خطيئة لحواء عندنا ، بل ان هذه المعصية قد انتهت بغفران الله لهما .. انه لغفور رحيم .

النقطة الأخرى هى الجنس .. والسلوك الغربى، من فجر حضارتهم ، ينظر الى الجنس كعيب..اثم .. انحطاط .. لحظة ضعف .. حيوانية .. حتى فى ذروة هذه الحضارة ، ورغم « الانفلات الحضارى » ، وما يسمى بالتحرر الجنسى ، فان هذا الانحلال ، على أوسع نطاق ، انما يعكس احتقار الجنس ، الاحساس بالعار ، .. بالاثم لارتكابه ! .. ومعروف ان السلوك الانسانى ، ازاء ما نؤمن انه اثم .. يتخذ احد شكلين ، اما التطهر بالتعفف عنه .. واما الاغراق فيه ، والتباهى به ، المنبعث من العجز عن مقاومته ، وبالتالى التسليم لسيطرته ، فالتحلل الجنسى والتباهى بهذا التحلل ، وفلسفته والمجاهرة بالدعارة ، كلها تعكس احساسا بالاثم .. ومحاولة لاخفاء صرخات ضمير ، باحداث أكبر قدر ممكن من الضجيج والصخب .

ولأن الرجل هو الذى كتب التاريخ ، وهو الذى فلسف القيم ، فقد صب حقد عجزه وضعفه الجنسى .. على المرأة ، تلك التى تعذبه بالحرمان ، أو توقعه فى اثم الجنس .. فهى الشر ، وهى الشيطان ...

اذن فانحطاط المرأة فى الفكر الغربى ، انما ينبعث من احتقار الجنس ، والنظر اليه ، على انه خطيئة او اثم . وايضا احتقار الجنس يرجع الى انحطاط مركز المرأة باعتبارها المسئولة عن الخطيئة الأولى .

أما فى حضارتنا فالجنس فى مكانه الطبيعى .. اسمع رأى الامام الحافظ ابى عبد الله بن القيم الجوزية (ولد سنة ٦٩١ وتوفى سنة ٧٥١) الامام الحافظ رضى الله عنه يحدد اسباب الاتصال الجنسى فيقول : « يحفظ به الصحة ويتم به اللذة وسرور النفس ، ويحصل به مقاصده التى وضع لأجلها ، فان الجماع وضع فى الأصل لثلاثة أمور هى مقاصده الأصلية ، احدها حفظ النسل ودوام النوع الى ان تتكامل العدة التى قدر الله بروزها الى هذا العالم . الثانى : اخراج الماء الذى يضر احتباسه واحتقانه ، البدن . الثالث : قضاء الوطر ونيل اللذة ، والتمتع بالنعمة وهذه وحدها هى الفائدة التى فى الجنة اذ لا تناسل هناك ، ولا احتقان يستفرغه الانزال . » .

تتحدى اى «عالم» أن يضيف سببا رابعا للاتصال الجنسى غير التى ذكرها شيخنا منذ سبعة قرون !.. أيعاب علينا أن نتيه على الدنيا بتفوقنا العقلى ؟ .. أيليق أن نغرر بفتياتنا فنقول لهن ان لورنس هو الذى جعل الجنس دينا وفنا ؟! .. لأنه اكتشف أو علم اوروبا ان اللذة الجنسية هدف فى حد ذاتها ؟!

تأمل حتى الترتيب العلمى الذى وضعه الامام الحافظ .. حفظ النوع .. وظيفة فيسيولوجية .. ثم المتعة الذاتية .

وقد رأينا ان هذه النظرة الاسلامية للجنس تختلف تماما عن منابع الفكر الغربى ، حيث يختلف ترتوليان مع « توماس الاكوينى » حول الاتصال الجنسى فيرى ترتوليان ان الجنس هو ثمرة خطيئة حواء وآدم ، وان الجنس البشرى كان سيتكاثر فى الجنة باسلوب طاهر غير جنسى . ولكن توماس الاكوينى ، يتلطف بنا ، فيعلن ان الاتصال الجنسى كان من بداية الخليقة ، هو السبيل الى التكاثر ، الا انه فى الجنة لم يكن ممتزجا باللذة الجنسية .. التى امتزجت به بعد ان هبط آدم من الجنة (ربما كعقوبة) (قصة الزواج والعزوبية فى العالم) .

أى ان اللذة الجنسية فى رأى توماس الاكوينى ، لا تليق بأهل الجنة .. بينما يبشرنا شيخنا الحافظ بأن الجنة فيها اللذة الجنسية وحدها ، حيث تختفى الاغراض الأخرى ، المصاحبة لهذه اللذه ، وهما بقاء النوع ، وسلامة وظائف الاعضاء .. رضى الله عن شيخنا ، وأصدقه وعده .

وانطلاقا من النظرتين ، اختلف الموقف من الزواج طبعا .. بولس يقول : « ان من يزوج ابنته يأت عملا طيبا ، ولكن من لا يزوجها يأت ما هو خير - وانه من الخير للرجل أن يظل أعزب الا ان خاف الوقوع فى الخطيئة » .

« انى لأنصح الايامى من الرجال والنساء ان يقتدوا بى فيظلوا على ماهم عليه ، فان لم يقر أحدهم على العفة ، فلا مندوحة له حينئذ من الزواج . »

والموقف عندنا ، هو العكس تماما ، فالحديث الشريف يقول : « يامعشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوج .. ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء »

فنحن امرنا بالعفه اذا عجزنا عن الزواج ، اما هناك فالاصل هو العفة ، فان عجزوا عنها ، تزوجوا ..

لذلك كانت الفلسفات السابقة على الاسلام « تحاول حصر هذا الزواج فى اضيق نطاق ، وتحرمه على القادة الروحيين .. او تقلل فرصته بمنع زواج الارملة والمطلقة .. واظن ـ واستغفر الله قبلَ القول ـ أن زواجه عليه الصلاة والسلام ، كان يستهدف ضمن العديد من القيم التعليمية . ازالة هذا الفكر المعادى للزواج .. والذى ساد العالم المتدين قبل بعثته . والذى كان يتهدد بفناء الجنس البشرى ، وهو فرض خيالى طبعا ، او قيام تناقض فى ضمير المتدين ، بين قوانين الحياة التى يمارسها فعلا ، وتعاليم الدين التى يجب عليه احترامها ..

والاتصال الجنسى عندنا ثواب .. قال رسول الله صلوات الله عليه .. « وفى بضع احدكم صدقة (اى فى الجماع) فقالوا (المسلمون) .. اياتى احدنا شهوته ويكون له فيها اجر .. قال ارايتم لو وضعها فى حرام ، كان عليه فيها وزر ، فكذلك اذا وضعها فى الحلال كان له اجر . »

فالجنس عندنا نعمة من نعم الله .. من حقه ان يمن علينا بها .. « ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها » « وجعل منها زوجها ليسكن اليها » ..

وممارسة الجنس كما راينا تزيد فى اجرنا يوم الحساب .. والمراة التى يتم لنا معها كل هذه النعم ، جديرة بان تسكن فى قلوبنا ، وان تتمتع بمكانة لا اقول الند ، بل يرفعها الحب فى قلب الرجل الى مافوق الند .. وتقول الدكتوره (بحق وحقيق) « سيجريد هونكه » .. « ان تعبيرات احترام المراة ، دخلت اللغة الاوربية على يد العرب » .

وفى اعتقادى أن الرجل الذى يستمتع بالجنس بلا عجز ولا عقدة الم .. لا يمكن ان يحتقر المراة ..

وهكذا نرى ان ليس ثمة مبرر واحد ، لانحطاط مركز المراة عند المسلمين .. ولكن بعضهم يغمز بعقوبة الزنا ، .. والفكرة التى يروجها المبشرون ، والمتظاهرون بالتمدين ، ان التشديد فى عقوبة الزنا ينبعث من احتقار الجنس أو كراهيته . وهترى لوفافر يتحدث عن « عبادة العذرية » التى نشات مع الملكية الفردية ! .. مع ان غشاء البكارة موجود فى القرود ! .. وربما يتحدث البعض عن الحب العذرى .. وكثيرا ما نسمع شقشقة « المتحررين » عن « الورقة » التى تبيع المراة للرجل .. يقصدون قسيمة الزواج .. وعن رباط القلب .. « بصى للسما .. وقولى تزوجتك ! » .. انه رجلى .. ومن حقه ان اعطيه كل شىء .. الخ »

وبالطبع ان قسيمة الزواج ، ليست من الاسلام ، لان الورق فضلا عن طبعه فى شكل قسائم ، اختراع حديث جدا كما هو معروف ! ..

والزواج عندنا سهل جدا .. ويمكن لاى رجل وامراة أن يتزوجا .. اما بالشهود ، او بالاعلان ، وبهما طبعا ..

وواضح ان اشتراط الشهود ، او الاعلان ، او هما معا انما يحميان حقوق الزوجة والاطفال ، فالعادة عند انكار الزواج ، ان ياتى هذا الانكار من جانب الزوج .. ومن النادر جدا وقوع حالة عكسية ، وان وقعت فغالبا بعد وفاة الزوجة ، واثر نزاع على الميراث . ولكن الشهود والاعلان ليست مراسيم ، وكتابة عقد الزواج ، ليست من نوع الطقوس التى بغيرها لا يتم الزواج شرعا ، انه كما رأينا ضمانات قانونية لحماية الشريك الاضعف .

ومادام يستطيع اى فتى وفتاة بلغ بهما الحب حالة السعار التى تتحدث عنها « فرانسوا ساجان » .. أن يستمتعا بها على سنة الله ورسوله .. دون انتظار مباركة شخص بعينه .. فلماذا يزنى المسلم ؟ الا ان كان الزنا يتم مع سبق الاصرار عليه ..

ولا اظن اننا سنقف طويلا عند البغاء ، فذلك ليس جنسا ولا حبا ، ولا حتى آدمية .. وما من أحد يجرؤ على المطالبة به اليوم ، أو الدفاع عنه . وان كان تاريخنا لم يخل من بعض الرقعاء . طالبوا باباحته لمنع الكبت والأمراض السرية ! ..

البغاء العام انحطاط للرجل والمراة .. فلنتركه

سريعا ، حتى ولو سموه باسم « مشاعية النساء » واقترن بمـــا يسمونه الشيوعية البدائية .. فان تكوين الاسرة هو أول الصـــفات الآدمية ، والغاء الملكية الفردية لا دخل له فى استمرار الاسرة .

نناقش اذن الزنا الفــردى .. والمرأة فى الأغلب الأعم لا ترفض الزواج بالرجل الذى أسلمته جسدها الا ان كانت تسلم هذا الجسد وحده ، دون قلبها سواء بدافع من الشهوة الحيوانية وحـدها ، لأن الحيوان يمارس الجنس بلا حب «بل هناك حيوانات عليا لا يخلو جنسها من حب .. والجنس بلا حب حيوانية ، بل سلوك حشرى ! أو حرصا على مكسب غير عاطفى .. أو لأنها ترى الرجـل غير كفء لها ، ولكنها تشتهيه .. هذه المرأة تهين نفسـها ، وتقـر بذلك فى أعماق ضميرها وهى تزنى .. لأنها تسـلم جسدها ، لمن لا تحترمه .. اذ لو احترمته لتزوجته ومثل هذه الزانية ، سـبة للجنس كله .. أما اذا سلمت المرأة قلبها ، فليس أسعد منها ولا أعظم عندها من أن يختارها الرجل الذى امتلك قلبها ، ومنحته حبها شريكة حياته ، ومكملة لدينه ، وأم لأولادهما.

الغالب اذن أن الرجل هو الذى يحب التملص الرجل الذى يمارس الجنس مع المرأة ، وهو لا يريد أن يرتبط بها ولا أن يحمل أولادهما اسمه .. هذا الرجل مهما كان فوران عاطفته ، يخـفى احتـقارا للمرأة ..

فتحريم الزنا هنا ، يعنى ـ ضمن ما يعنيـه ـ تحريم احتقار المرأة ..

وحالة أخرى للزنا ، هى تلك التى تتم مع اتفاق الطرفين على استبعـاد الزواج ، أى الزنا بحليلـة آخر .. وهذا هو الجنس المشوه ، الذى يقوم على خيانة ثالث .. وعلى اقرار من الطرفين بأنها علاقة لا تتجاوز هذه الرعشة المؤقته مهما أحيطت بالشبق والحنان .. فهى مدمرة ، خاوية ممتزجة باحسـاس وضيع بالخديعة .. خديعة الرجل للمرأة ، يقول بلسان ما لا يتجاوزه الى قلبه .. قلبه الذى يوقن أنها علاقة عابرة بلا مسئوليات .. يهمس فى أذنها انه مستعد « للموت » فى سبيل حبهما .. وهى على يقين برفض « الحياة » فى سبيل هذا الحب ! .

وخيانة المرأة للرجل ، تريد احضـانه ولكنها لا تقبـل العيش معه سوى لحظات مختلسة ، علاقة يغلفها الكذب والشك فى واحدة من أصـدق اللحظات .. وكيف يصدق الرجل رعشة امرأة وهو يعرف أنها تكررها مع غيره .. ربما بعد ساعات ، وربما قبل ساعات .. وأنى لرجل ان يكتشف الزيف فى هذه اللحظات من الصدق ؟! وكيف تصدق المرأة رعشة رجل مطمئن تمام الاطمئنان ؛ انه لا يحمل مسئولية عواطفه ، بل يحملها لرجل غيره ..

وماذنب الطفل الضائع بين يقين كاذب ، وشـك لا يجرؤ حتى على الشك ! ..

من هذا كان زنا المحصن يســتحق الرجم .. وكان حديث الرسول عن ابن مسعود « سـألت رسول الله .. أى الذنب أعظم عند الله ، قال ان تجعل لله ندا وهو خلقك ، قال قلت له ان ذلك لعظيم ، ثم أى ، قال : ثم ان تقتل ولدك مخافة ان يطعم معك ، قلت ثم أى ، قال ثم ان تزانى حليلة جارك » .

نعم ! الشرك بالله لا يتفق وقدسية التوحيد ، وهو انحطاط بالانسان عن المرتبة التى رفعه الله اليها . فلم يجعـل له ربا الا رب العـالمين وحده والزنا بين المتزوجين ، شرك بالعـاطفة الانسـانية ، الصادقة ، وخيانة للحب ، واهدار للجنس ..

فتحريم الزنا فى الاسلام لا ينبعث من كراهيه الجنس بل من احترام الجنس .. وتنزيهه عـن العبث ، ومن احترام المرأة وتنزيهها عن أن تكون أداة لمتعة الرجل .. وحتى لا ينسب الطفـل لغير لحظة الحب التى انجبته ..

فاذا علمت ان عقوبة الرجم لم تطبق فى التاريخ الاسلامى الا على معترف أو معترفه ، وان هـذا الزانى المعترف لو انكر بعد أن أصابته الاحجار ، لوجب وقف تنفيذ الحد .. وانه فى العصور الوسطى للاسلام ، لا لاوربا ، أوشك سلطان المماليك أن يواجه ثورة حقيقية لأنه كان زانيا معترفا ، ولكنه عدل عن اعترافه فى آخر لحظة ! .. اذن لعرفت ان عقـوبة الزنا قد عبرت فيما عبرت عنه ، عن احترام عميـق للمرأة ، وتقدير عميق للجنس .. فمـا من شبهة فرض ولو خيالى ، لظرف ، يجبر فتى وفتاة على الزنا .. فى ظل نظام الزواج الاسلامى ، الذى بلغ القمة فى تحرره وبساطته ، وقدسيته فى نفس الوقت ..

« **محمد جلال كشك** »

أصدقائي .. وداعا

للشاعر: محمد الجيار

بعد ان شلت على عودي يدي   نسي الليل نشيدا .. ضواه
اقفر البيت .. وسماري مضوا   انكروا .. حتى رماد المدفاه
واتى الفجر .. بلا أمنية   عابرا .. بين المرايا الصدئه
قبل ان اصنع كوبي .. شجها   صاحب .. قد كدت أروى ظماه

* * *

داس محبوبي على قلبي الذي   كان مصباحا لأعمى .. اطفاه
ايها المنكر عينا عميت   من بكاها في الليالى المخطئه
هي من اجلك ضحت .. بالسنا   سامح الآن عيوني المطفاه
واخي (قابيل) ليلا زارني   يرتجي في دار قلبي .. مخباه

* * *

فطعمنا .. ثم اشعلت له ..   خشب المعزف .. حتى يدفئه
قام يبغى مقتلي .. مبتسما   وهو لا يعلم .. جهلا .. خطاه
غفر الجرح له .. طعنته   وحنان الحب عندي .. براه
سندبادي مات مقتولا على   قمة الصاري .. ينادي مرفاه

* * *

هل حفظتم دمعة من قلبه   او رويتم لليالي .. نباه
آه .. يا صحوة أحزاني التي   طهرت .. حتى الليالي المخطئه
كنت أبكي حين يهوي جسدي   وانا انهل من ثدي امراه
انا في بيت الخطايا .. مصحف   يضرع الفجر له .. كي يقراه

* * *

ربما في ليلة .. زنديقة   عبرت سيارة بي .. مبطئه
وبها انني شدت شعري انا   وهي في حضن المنى .. متكئه
لو راتني .. لا زدرت اسطورتي   ورمت لي .. نظرة .. مستهزئه
ايها البحر الذي ينكرني   وانا في قلبه .. كاللؤلؤه . !
قبل ان اصنع كوبي .. شجها   صاحب .. قد كدت أروى ظماه
ومضى والبرد يشوي وجهه   وانا فيه .. دموع مدفئه

أحمد محرم في ذكراه العشرين

١٨٧٧ - ١٩٤٥

بقلم: مصطفى عبد اللطيف السحرتي

- ١ -

منذ عشرين عاما مات نابغة البحيرة الشاعر الموهوب **احمد محرم** ، ولم يلق الى اليوم انصافا وتقديرا كما لقى رصفاؤه ومعاصروه ، اللهم الا من قلة من الكتاب لايزيدون على اصابع اليد الواحدة ، كتبوا عنه بحوثا موجزة ، وخصه بكتاب مفرد أديب أزهرى نابه هو الاستاذ محمد ابراهيم الجيوشى ٠

وقد آن الأوان للتكفير عن هذا الجحود والنكران لشاعر حر كبير خلف من ورائه تراثا شعريا ضخما قيما ، لايزال أكثره مخطوطا لم ير النور ٠

وتقضى علينا عاطفة العرفان بالجميل ، أن نبادر بنشر هذا التراث ، وأن نقدر لهذا الرجل ثمرات عمله وجهاده فى الحقل الأدبى ، ونجازيه الجزاء الحق العادل بعد أن فارق الحياة محروما مغموطا من بيئته الكنود ٠

ولقد كنا نود أن نرجىء الحديث عنه حتى ينشر كل تراثه ٠ ليكون تقديرنا له تقديرا أدنى الى الدقة والصواب والشمول ، ولكنا لم نقاوم الرغبة فى التحدث عنه فى هذه الأيام ، لابراز طائفة من ميزاته الشعرية والخلقية ، علها أن تكون حافزا للمبادرة الى هذا النفر ، وبخاصة بعد أن أسعدنا الحظ بالاطلاع على قسط موفور من شعر الرجل المخطوط ٠ وهالنا ما فيه من كنوز ٠٠ نفيسة مخبوءة ، وما للرجل من سمات عجيبة نادرة ٠

ولا نعد هذا الحديث الا محاولة أو مغامرة للكشف عن الرجل والشاعر ٠

- ٢ -

واذا كان النوابغ يختلفون عن العاديين من الناس، فى كثير من سلوكهم وطبائعهم ومزاجهم وعاداتهم ، ومعتقداتهم ، فقد كان أحمد محرم من هؤلاء النوابغ العجاب الذين تفردوا فى جيلهم بهذا الاختلاف ، فى الطبع والمزاج ، والمعتقد ، ولا أدل على ذلك من قوله: فى قصيدته البديعة ــ وحدى ــ :

وحدى بليت بنفس ليس يعجبها
ما يعجب الناس من راى ومعتقد

ولا يطيب لها الا الذى كرهوا
من مركب خشن أو مطلب نكد

وحدى شقيت بهذا الشعر أجعله
أحدوثة الدهر أو أنشودة الأبد

وحدى وفيت بعهدى والوفاء أذى
يجنى على الروح مايجنى على الجسد(١)

فله رأيه وله عقيدته لاينزل عنهما وان خالفهما جميع الناس ، ويطيب له ما لا يطيب لهم ، فهو يرضى بخشونة العيش ، وما تورثه الحاجة من نكد ، وهذا مالا يطيب للناس ، وهو يرضى بممارسة الشعر ،وما يستلزمه من عنت وعناء ومكابدة ، وهذا مالا يزكو للناس ، وهو يدين بالوفاء وفى الوفاء أذى ، وهذا مالا يحبه الناس ٠

وهكذا اذا رجعنا الى شعره وجدنا أمثلة كثيرة تؤكد حقيقة هذا الاختلاف فى الراى والاتجاه ، والسمات الخلقية ، ومن ذلك ماجاء فى قصيدته « المذهب الأمثل » وفيها يكشف عن ابتعاده عمن يخالفه فى مذهبه واجتنابه مجالس من يخالفونه فى رأيه ، وفيها يقول :

دعونى وما أرضى لنفسى وجنبوا
هواى هواكم ليس مذهبنا معا

لكم شأنكم انى أرى غير رأيكم
وان لنفسى دونكم متطلعا

---

(١) مجلة الثقافة فى ٢١ سبتمبر سنة ١٩٣٤ ٠

دعوت فأعرضتم فلا تغضبوا اذا
تنكبت عنكم من عناني بما دعا
سلام عليكم لست منكم وليس لى
سوى ان أرانى بالقطيعة مولعا
سأسكت حتى ما أرد تحية
وابعد حتى ما تروا لى موضعا (١)

وتكشف من هذه القصيدة صلابته فى رأيه وبعده عن المصانعة أو المهادنة ، وأبرز مظاهر هذه الصلابة ماكان فى السياسة ، فلقد اعتنق مبادىء الحزب الوطنى ، ووقف يذب عنها ، ورأى غير رأى الكثرة الكاثرة ، بل وقف يجابهها بما يعتقده الحق ، ولو شاء خفض العيش ، لهادنها او سكت عن مناوأتها ، ولكنه كان يرى فى هذا السكوت خيانة لنفسه ، وفى ذلك يقول فى قصيدته « عهد المؤمن » :

معاذ الله أن أختان نفسى (٢)
وان أختار شر الخطتين

ولست ببائع نفسى ودينى
ولو أوتيت ملك المشرقين

لهذا سلطة ولتلك أخرى
فما بالى وبال السلطتين

يريدون القليل ولى مراد
يضيق به خراج الدولتين

سأملا هذه الغبراء مجدا
وأترك أهلها صفر اليدين

على التاريخ بعد الموت حقى
وعند الله يوم الدين دينى (٣)

ـ ٣ ـ

والشاعر لايختلف لمجرد الاختلاف ، ولكنه يختلف لما يراه أنه الحق ، وما كان أكثر ما تنتشر كلمة « الحق » على شباة قلمه ، فعندما وقع الخلاف فى عام ١٩٢١ بين أعضاء الوفد المصرى لم يأبه محرم بماهية الاختلاف ، ولا بأشخاص المختلفين ، ولكنه كان ينظر الى حق مصر واستقلالها :

(١) ديوانه الجزء الثانى ص ٧٥ ـ ١٩٢٠ .
(٢) أختان : أخون .
(٣) ديوانه ج ٢ ص ٧٨ .

يقول البرق : شر مستطير
وخلف بين سادتنا شديد

ويزعم تارة أن ليس شىء
سوى الأمر الذى عزم العميد

اذا اختلفوا او اتفقوا فانا
سوى استقلال مصر لانريد

هو الحق الذى نسعى اليه
ولسنا عنه ماعشنا نحيد

اذا لم يحفظ استقلال مصر
فلا سعد يطاع ولا سعيد (١)

وهكذا نراه فى كل مواقفه السياسية والوطنية لايابه بالأشخاص ، ولايخشى سطوتهم ولا جبروتهم ، فنراه فى شبابه يحمل على الملوك ، ويرميهم بالكذب وفقدان الشرف، والضحك على الناس بالرتب والنياشين وابتزاز .. أموالهم فى سبيل الحصول عليها ، فهاهو ذا يقول فى ديوانه الأول الصادر فى عام ١٩٠٨ :
كذب الملوك ومن يحاول عندهم

شرفا ويزعم أنهم شرفاء
رتب وألقاب تغر وما بها

فخر لمحرزها ولا استعلاء

ذنب الملوك رمى الشعوب بنكبة

جلى تنوء بحملها الغبراء (٢)

وقصائده الوطنية الأخرى ضد الانجليز الغاصبين كانت من الجرأة والعنف بمكان ، جرأة لم يعرفها معاصروه من الشعراء أمثال شوقى أو حافظ، أو صبرى .

ومن آياتها قصيدته الموجهة الى السفير البريطانى جورج لويد الشهير بصلفه وعجرفته وروحه الاستعمارية التى يقول فيها :

عميد الغاصبين نزلت أرضا
يبيد الغاصبون ولا تبيد

(١) قصيدته « أنصار الاستقلال الكاذب » ديوان محرم ج ٢ ص ٢٢٢ .
(٢) ديوان محرم الجزء الاول ص ١٥٠ ـ ١٩٠٨ والقصيدة بعنوان « الشرف والملوك » .

يــذود الواحــــد القهار عنهــا
اذا قهــرت جنـودك من يذود (١)

وقائمة هذه القصائد طويلة ، وهذا العنف فيما كان يراه حقا ، لم يقتصر على الناحية السياسية والوطنية ، بل شمل الناحية الاجتماعية، فهاهو يجابه قاسم أمين في دعوته الى سفور المرأة مجابهة قاسية ـ بدافع من غيرته الدينية ويحمل على كتابه « المرأة الجديدة » :

فيقول في قصيدة « الحجاب » :

أغــــرك ياأســـماء ماظن قاسم
أقيمي وراء الخـــدر فالمرء واهـــم
تبدت الينا بالكتــاب كأنمــا
صحــائفه مما حملن مــلاحمــا
ففي كل ســـطر منه حتف مفاجيء
وفي كل حرف منه جيش مهــاجم
حنانك ان الأمــر قد جــاوز المدى
ولم يبق في الدنيــا لقومـك راحم
أحاطت بنا الأســد المغــيرة جهرة
ودبت الينــا في الظلام الأراقـم
وأبرح مايجني العــدو اذا رمــى
كأهون مايجني الصــديق المسالم
لنا في كتــاب الله مجـد مؤثل
وملك على الحــدثان والدهر دائم

وهاهو ذا يحمل على الاثرياء والمترفين ، النائمين عن خير بني وطنهم ، والناس في بؤس ، والقلوب عابسة بعد ابتسام ، والشعب في لوعة فيقول في قصيدته الفريدة « الحقوق الضائعة » :

حســـب المفجع ان يعلــل حينا
شر التعلــل مايكــون ســنينا
آجال قـــوم في الشـــقاء كأنما
يطوين آجالا بهـــم ، وقـــرونا

ثم ينثني الى الأغنياء الذين جهلوا معنى الحيـــاة الحقيقية ويلقي عليهم درسا فيقول :

قل للألى جهلوا الحيـــاة ، تعلمـوا
معنى الحيـــاة وسرهـا المكنـــونا
مـــدوا يد المعـــروف ، ان وراءكم
شـــعبا يهـــز الواديين أنينــا
لولا التعفف والحيـــاء لأرخصــت
بيض الحـــرائر خـــير مايغلينــا
ولما رأيتم في الكنــــانة فاضــلا
يبني بأهــــل أو يعول بنينــا

ثم يتوعدهم ويخيفهم ويلمح الى ان مآلهم ســـوف يكون وبيلا فيقول :

اني أرى خلل الحـــوادث موقفا
جـــللا يقيـــم قيامة المثـــرينا
ميلا مواليـنا ، أيجمــع واحـــد
مالو يفـــرق جـــاوز المليـــونا
ونظل لانرجـــو نظامـــا صالحا
يقضي الحقوق ، ولا نرى قـــانونا؟
بتم على نكـــد الحياة وشـــؤمها
مستبشرين بعيشـــكم فرحينـــا
هانين من فوق المضــاجع بالكـرى
والســـهد ملء مضــاجع العــانينا

وعلى هذا الغرار سار في هذه القصيدة التي لم يقل شاعر في عصره مثلها في جرأتها وما تنطـــوى عليه من ثورة مصلحة مرهصة الى الاشتراكية .

وأبادر فأقول ان هذا العنف في قول الحق ، هـــو من نبع حساسيته المفرطة ، هذه الحســاســية التي يتميز بها طائفة من الشعراء ، ويحسبها بعضهم داء نفسيا ، ويحسبها البعض تعصبا ويراها الآخـــرون ضربا من العقائدية ، كما يقولون .

وقد جرت هذه الحساسية المفرطة على محرم الآلام والمتاعب ، في مجتمع ضيق الأفق ، جامد الـذهن ، ينزع الى النقمة ممن لايصانعه ، ويدور في فلكه ، فانفض عنه الكثير من الناس ، ووقف في طريقه ذوو الجاه ، والسلطان ، كما وقفت الارستقراطية الأدبية تسد عليه السبل ، وكاد يفقد الرجل في هذه البيئة العاقة الكزة كل شيء ، الا الحرية التي كانت تضيء له الطريق .

(١) ديوان محرم جـ ٢ ص ٦٣ .

وانه يقول: «لقد استطعت ان اشق لنفسى الطريق وان اكتسح العراقيل والحواجز ، وكانت لى عدا كفايتى الفنية ، ميزات أخرى تعيننى على تحطيم الارستقراطية الأدبية الشديدة الجشعة ، والتحكم ، وتجعلنى أحتل مركزى فى عالم الأدب ومن هذه الميزات .... حريتى السياسية اولا ، والفكرية ثانيا ، فانا اقول ماأشاء فى اى باب اريد ، والى أى معنى اقصد،فمن سياسة الى اجتماع الى أخلاق الى غير ذلك ، مما يجول بخاطرى ، ويقوم فى نفسى انه جزء من رسالتى (١) ، أجل ، فقد الرجل كل شىء الا الاباء والحرية ، وهما الجناحان اللذان كان يطير بهما بعيدا عن مادية المجتمع، وجفافه وحنقه، ولذا فقد تقلب بين مد وجزر ، وشد وجذب ، ويأس ورجاء ، وقلق واطمئنان ، وثورة وسكون ، وأودع شعره مختلف حالاته النفسية وانفعالاته ،فبكى قلبه ماشاء أن يبكى، وسمع ـ كما يقول ـ وقع الحزن فى كبده ، ودبيب الأسى فى نفسه .

وكاد يشك فى وجوده ،ولكنه ظل ثابتا على معتقده، مستقرا على رأيه لايريم ، معتنقا مثله العليا جلدا على الآلام والمصائب :

هى الأقدار ليس لها مرد
اذا انطلقت نحوسا او سعودا
رويدا ان للمكروه حدا
وان لكل ذى ضرم خمودا
اذا اضطرمت خطوب الدهر فاربا
بنفسك ان تكون لها وقودا
دع الجزع المذل وكن أبيا
يراه الخطب مضطاما جليدا (٢)

ولقد تمكن الرجل من التغلب على حاله التاعسة بايمانه وروحه المتصوفة ، وبخلقه القوى ، واستطاع ان يذوب همومه بقتل الطمع فى نفسه ، وأن يغتنم العزاء بفنه الشعرى المتاز وهو فى ذلك يقول :

النفس تطمح والمطالب جمة
تفنى القوى وتطيح بالعزمات
اقنع بايسرها فرب طماعة
صدعت اباء المرء ذى النخوات
طالت همـوم العيش حتى ماترى
ممن تسائل غير طول شكاة

العمر أيام تمر حثيثة
والمرء رهن عشية وغداة (١)

ويبلور وجهة نظره فى الحياة وعيشته عيشة الفيلسوف الرواقى القانع الراضى فى قوله :

جلت أيادى الله بين عباده
واجلهن تقلب الأحوال
يجرى علينا حكمه وقضاه ...
بسوابغ الآلاء والأفضال
تخفى مواقعها فتذهب أنفس
أسفا وتلك خلائق الجهال
من اجل ذلك راب أمرى معشرا
يتهامسون اذا حضرت حيالى
يتساءلون أما تميد بصبره
رجفان عيش دائم الزلزال
لو كان من شم الشوامخ قلبه
لهوى وآذن ركنه بزوال
أيخادع الأحداث عن أهوالها
أم ليس يحفل حادثا وبيالى
أكذا تكون قوى الرجال اذا رست
احلامهم وعزائم الأبطال
ماظنهم بفتى يميت همومه
ويبيت فى دعة وغبطة بال
ثقة بان الله بالغ أمره
سبحانه من قادر فعال (١)

هذه اهم سمات الرجل من محتوى شعره السياسى والاجتماعى والنفسى ، سماته العقلية ، والنفسية ، حب الحقيقة ، والاباء ، والوفاء ، والرضا ، والتصوف، وهذه السمات وغيرها شف عنها بناء شعره القوى الحار ، فقاموسه اللغوى واسع غزير والفاظه المنتقاة المتخيرة تدل جميعا على نبوغه وذكائه ، كما يقول السيكولوجيون ومعدنه النفسى النفيس تكشف عنه قصائده ذات الأبيات المتماسكة المتماثلة فى قوتها ـ فلا تجد له بيتا قويا وآخر متهافتا .. بل جل الأبيات فى مستوى واحد من القوة وهذه علامة دالة على قوة خلقه ، وطواعية قوافيه ، وموسيقية أبياته يدلان دلالة أكيدة على توازنه الروحى وحرارة عاطفته فى جل قصائده ، ان لم تقل فى كلها ، تحمل الدلال على حماسته وحيويته ، وهما جناحان قويان من اجنحة الشخصية القوية .

مصطفى عبد اللطيف السحرتى

---

(١) أحمد محرم بقلمه من رسائل محرم للسيد حسنين محمود حسنين ص ٢٧ ـ ١٩١٣ .

(٢) مخطوط .

(١) من قصيدته « الناس فى الدنيا » وهى مخطوطة .

حول الأدب في الشرق

بقلم عبده بدوى

إخماد جانب من النار

قد نكون فى أشد الحاجة الى المزيد من المناقشات فى القضايا الادبية ، والى أن يغمس البعض قلمه فى دم الآخرين ما دام يريد الوصـــول الى الحقيقة ، ولـكننا فى – فى الوقت نفسه – فى حاجة الى أن نلتقط أنفاسنا ، وأن نسند ظهورنا الى شىء ، ثم أخيرا الى أن نريح السلاح المصوب والساخن فى اليد الى جنبنا فترة من الزمن ٠٠وليس معنى هذا أنا ندعو الى تجميد الزمن ، والى احداث نوع من الشلل فى حركة الحياة ، ولكنى أريد أن أطلقها كلمـة سريعة خضراء فى هذا الجو العاصف ، ولما كنت أدرك أن الريح لا تكف عن هز قامات الناس والاقلام والافكار، فانى أحب أن أقول هذه الكلمة بعيدا عن الريح التى لا تكف عن هز القامات والاقلام والافكار ٠

ان هذه الكلمة التى اريد أن أقولها لا تخرج عن مسئولية الاجيال العربية تجاه تراثها ، وانها كمـا لم تستطع أن تدافع المغيرين فانها لم تستطع كذلك أن تقاوم الكراهية التى بثها هؤلاء المغيرون نحو هذا التراث ، فاذا أضفنا الى هذا أنا ما زلنـــا الى الآن نجهل تراثنا الموجود داخل كل بلد عربي ، ومن باب أولى الموجود على طول المنطقة العربية ، والموجود فى مناطق كبيرة من العالم ٠٠ ادركنا اننا اما أن نتحدث من أفواه الآخرين ، واما أن نسوق أحكاما سريعـة ومبتسرة ، وهذا بدوره يجافى النظرة العلمية ٠

ومن هنا كان علينا الا نصمت عن هـــذا التراث ، أو نؤجل الحديث حتى يتكامل ، ولكن علينـــا الا نسحب عليه ما قاله المستشرقون ، أو المتعجلون فى الاحكام ، وانما يجب أن ننظر من جديد نظرة علمية الى هذا التراث ، بالجمع والتحقيق ، والصبر على علاقاته بالفروع الاخرى ، وبخاصة اذا عرفنـــا أن تراث هـذه الامة الدينى والعلمى والادبى والفنى مضفر بعضه بالبعض الآخر ، وانه لا بد من الصبر على علاقاته المتشابكة اذا أردنا الوصول الى نتـائج موضوعية فى هذا الميدان ٠

ان من الحقائق التى أصبحت مقررة الآن أن العرب فى الماضى كانوا متخلفين ، وان عقليتهم لم تكن مركزة لانهم لم يقرءوا الـــكتب ، وانهم الوحيدون الذين لم يعرفوا بعض الفنون والعلوم ، وانهم كانوا ساعى بريد للحضـــارة ، وان كل شىء يمسونه يصيبونه بالعقم ٠٠٠ الخ ٠ ولكن الكشوف والدراسات شككت فى كل هذه المسلمات التى توجد فى ميادين العلم والادب والفن ٠

ومن هنا كان من الواجب علينا أن نتريث ونحن نتعاطى هذه السموم القديمة ، وكان من الواجب أن نغير نظرتنا نحو انفسنا بعد أن اصبحت الدراسات الاجنبية نفسها تتراجع عن كثير مما أكدته في الماضي، فأنا لا أعرف بلدا في العالم يصدق مايقال ضده مثل ما نصدق ، ولنأخذ مثــلا من الافريقيين الآن فقد رفضوا تماما كل ما قيل عنهم ، وبدءوا يتعرفون على انفسهم من خلال التنقيب والمعاناة في تاريخهم ، بل ان عادة الانتقاص من النفس قد اصبحت ظاهرة في مجتمعنا ، فنحن لا تعدم رؤية هذا الانســان الذى يسمى «ظريفا» والذى يضخم فى الاخطاء التى يقوم بها ليضحك من حوله الآخرين ، اترانا قد انتهينا الى مثل هذا الحال ؟

على كل فأى بحث موضــوعى فى أى جانب من جوانب حضارتنا يؤكد وجود وجهة نظر جديدة غير وجهة النظر السائدة الآن ، ولعلنا حين نطالب بهذه النظرة ، وبانه لا يجوز أن نكون امة من «الظرفاء» ليستمتع بالنظر الينا العالم ولينظر الينا وفمه متسع من الضحك ٠٠ نكون قد أسهمنا فى اخماد جانب من النار التى تشتعل الآن فى الحقل الفكرى، ونكون قد انصفنا أنفسنا ، وعرفنا تاريخنا ٠٠ بعد كل هذا الضياع الذى عشناه ، والذى يبدو أننا نتعمد أن نعيش فيه ٠

الشعر وجانب العملة

منذ عام ونصف العام دار بيننا حديث فى قطار ، ولما كان أحد الموسوعيين المعمقين فى هذا العصر ، فقد عملت من جانبى على أن أحاصره فى دائرة واحدة هى دائرة الشــــعر ، وأذكر أن مما قاله ــ رغــم دوى القطار ــ أن الشعر فى جوهره موسيقى ، وان هذه الموســيقى لا يمكن أن تتحقق بتقطيع التفــاعيل وتمزيقها على نحو ما يفعل بالشعر الآن ، وان حرية الحركة من بحر الى بحر من شانها أن تحطم الايقاع الداخلى للقصيدة ، وأذكر أن الحديث قد انتهى بأن الشعر الغنائى يجب أن يلتزم عمــود الشعر ، أما استباحة الطول والقصر فى عدد التفعيلات فيجب أن يقتصر مداه عند حد الملحمــة والمسرحية والقصة ، وعند حد ترجمة الشعر الاجنبى من لغته الى اللغة العربية ٠٠ ثم كان أن طاف العالم أمامى وبين الحين والحين كان يقدم اعظم الشعراء المعاصرين ثم يُضيف انهم جميعا يلتزمون عمود الشعر فى لغتهم ٠

ولما كنت أعرف أن الدكتــور **عبد الرحمن بدوى** لا يقول كلاما للثرثرة ، أو للاستعانة به على الوقت، وأن من طبيعته ألا ينزل للمعــارك الا وفى يديه الدليل ، وأن هذا الدليــل لا بد أن يتفق ورسوخه الفكرى ، ودوره الريادى فى حياتنــــا ٠٠ فقد دار بذهنى أن وجهة النظر هذه يجب أن تنزل للتداول ، وبخاصة فى تلك الفترة التى صدرت فيهـــا أوامر التحريم بعدم السماح بمرور كلمة يمكن أن تناقش قضية الشعر الحر ، أو تقول كلمة انصاف فى الشعر المتجدد ٠

وتمر الايام واذا بى أجد كتابا للدكتور عبدالرحمن بدوى بعنوان « فى الشعر الاوربى المعاصر » ومع أنه يقدم ملامح متعددة من الشعر فى العـــالم وبخاصة الشعر الالمــــانى ، الا انه يخيل الى أنه كان يكتب ليقول ان الشعراء الاوربيين المعاصرين بكافة مراحلهم يسيرون جميعا فى الطريق الذى يقول ان التجديد الشعرى الحق يكون فى الموضوع الذى يطرق ، وفى الصورة التى تبتكر بمهارة من كل جديد فى عالم المدنية ، بالاضافة الى الطبيعة سواء أكانت فزيائية أم انسانية ، ذلك لان الشعر لن يكون شعرا الا بها الى جانب الايقاع الموسيقى ، ثم يقول «٠٠ وفى هذا يقوم جوهر الشعر الحديث ، لا فيما يتوهمه دعاته فى العالم العربى من اطراح للبحور والقوافى أو طرق لموضوعات شعبية أو استخدام للألفاظ العامية ، فهذا كله لا شأن له بجوهر الشعر الحديث ، انما هــذه وسـائل بمعزل عنه ، وخطأ دعاة الشعر الحديث من العرب أنهم خلطوا بين ظاهرة عرضية وهى استعمال بعض الشـــعراء المحدثين الاوربيين لحوادث الحياة الجارية وآلات المدنية الصناعية وما يتبع ذلك من لغة شعبية عامة ٠٠ وبين جوهر شعر هؤلاء فحسبوا أنهم مجددون بسبب هذا الاستعمال لا بسبب خلق صور شعرية طريفة كل الطرافة استمدوا عناصرها فى كثير من الاحيان من واقع الحياة اليومية الجارية والآلات الصناعية ٠

وهو يذكر أن الشعر الاوربى يمثل المعاصرة ،لانه يعكس قلق العصر على الانسان وسط تفوقه المادى ، واشتباكه النفسى والحياتى مع الآلة والاقتصـــــاد والمذاهب الاجتماعية وهذا كله قد يغرى بالجديد مهما كان هذا الجديد ، والتبرم بالماضى مهما كان مزدحما بالمضىء والجيد ، ومع أن هذا لايخرج عن كونه مظهرا من مظاهر دور الخريف بل الشتاء فى الحضارة ، الا أن تاريخ الفكر الانسانى يؤكد أن كل الاتجـــاهات

التى لاتقوم على أسس راسخة من القيم الحقيقية تلقى دائما دورها فى الذبول ثم الموت .

والمؤلف يضعنا فى مواجهة الشعر الالمانى ، ويؤكد أن هذا الشعر لايخرج عن عمود الشعر الالمانى بأوزانه وقوافيه . بل أن ألمع المجددين « كبر تولت برخت » يلتزم القافية أكثر مما كان يفعل الشعراء الالمان فى العصرين الكلاسيكى ، والرومانتيكى ، وليس معنى هذا أنه لاتوجد النماذج التى تخرج على هذه الخصائص الشعرية ، ولكنها من القلة والندرة بالصورة التى تجعل الغرض منها فى نهاية الامر «الاطراف والتطرف لا الاجادة والتجديد» .

هذه نظرة الى العالم الكبير الذى فتحه فى منهجية الدكتور **عبد الرحمن بدوى** ، وليس لنا من هدف هنا الا ان نحرض على النظر الى جانبى العملة ، فنحن فى أشياء كثيرة نسير ونحن نغمض احدى العينين مخافة أن تنظر الى الجانب الآخر فى عالم الادب ، وما أحوجنا الى أن نسير «مفتحين»على كل شىء فى حياتنا، وأن نتعلم من اصدقائنا واعدائنا معا .. وأن ندعم وجهة نظرنا بالموضوعية التى تكلم بها الدكتور عبد الرحمن بدوى .

ثلاث رسائل

اتيح لى أن اشهد أخيرا مناقشة ثلاث رسائل جامعية اولاها فى كلية الآداب للشاعر **كمال نشأت** ، والثانية فى معهد الدراسات العربية **لسعد جاويش** ، والثالثة **لعبد الحميد ابراهيم** فى كلية دار العلوم ، وقد كان موضوع الرسائل على الترتيب أحمد زكى ابو شادى حياته وشعره ، الاتجاه الجديد فى شعرنا المعاصر (الشعر الحر) ، قصص العشاق فى العصر الاموى .

ولقد كان مما يؤسف له حقا أن الجمهور الذى حضر هذه المناقشات كان يمكن حصره بلحظة خاطفة من عين ، وكان العنصر الغالب فيه هو عنصر الطلبة، وليس لهذا من معنى الا أنا أصبحنا لانقبل على الاعمال الجادة ، ولا نحس بالاعمال الفكرية الكبيرة التى لاتتطلب مشقة فى الدخول ، ولكنها تتطلب أن يضع الانسان عينه على ساعته ، ثم يسير يقضى ساعات لايمكن لاى انسان أن يحس بالملل فيها لطبيعة الصراع الفكرى ، وللاشتباكات التى لاتمتد الى الطالب فقط ، ولكنها تتعداه الى المناقشين ، ثم لهذه النبرة الجديدة التى لم نكن نعهدها فى الماضى ، والتى لاتلقى عبئها على الطالب فقط ، ولكنها تتعداه الى القاء توجيهات عامة للذين يستعدون لأخذ دورهم فى مثل هذا الموقف ، بالاضافة الى الاحساس الذكى بالجمهور المشاهد ، وتحويله الى ما يشبه « عيشة المحلفين » .

ولعل الظاهرة التى كانت بارزة تماما ـ والتى دفعتنى الى الكتابة هى أن اصحاب هذه الرسائل كانوا يتحمسون أشد التحمس للموضوعات التى كانوا يعالجونها ، وكانوا يعرضون افكارهم بحماس يذكرنا بمقالات الاثارة التى تمتلىء بها صحافتنا ، والتى كانت تتناقض تماما مع الهيبة العلمية التى يضفيها الروب الجامعى على الممتحنين .

فالدكتور كمال نشأت اركب أبا شادى حصانا أبيض .

وظل يشد فى قامته حتى لم يعد أحد يرى رأسه، ثم أسلمه سيفا لم تقع عين أحد الا على قبضته ، ثم تركه يصدم مدرسة الديوان ، بل لقد حلا له أن يجعله يخوض فى دمائها ، وفى دماء بعض الحقائق الاخرى التى تتعلق بالعرب وبطبيعة الشعر العربى ، مما جعل بعض الممتحنين يضعونه أحيانا أمام هذه الحقيقة ، ويذكرون أن الحماس قد يكون مقبولا فى أى شىء الا فى الرسائل الجامعية ، وبخاصة اذا كان هذا الحماس يصل الى التناقض التام ، فاذا كان عبد العزيز الدسوقى يذكر فى رسالته ان مطران لم يجدد لانه مسيحى ، فان كمال نشأت يقول ان مطران لم يجدد الا لانه مسيحى .

وسعد جاويش .. نرى عنده هذه الظاهرة فنراه يقول ان المتنبى تأثر تأثرا واضحا بالثقافة الاجنبية وبخاصة اليونانية ، ثم يقول ان الشعر القديم كله تقريرى ومرتكز تماما على الصور المادية ، مما جعل الدكتور عبد القادر القط يؤكد أن هذا الكلام لايخرج عن كونه « دعاوى عريضة » وأن الشعر العربى يناقض هذا مناقضة كاملة ثم ضرب امثلة شعرية سريعة توضح هذا التناقض لامرىء القيس ، وزهير ، وطرفة ، ثم يعقب ان الحماس للشعر الجديد جعل سعد جاويش ينسى تماما أن يذكر عيوبا فيه مثل النثرية ، والتكرار ، والاخطاء العروضية ، وأن الحماس فى نهاية الامر يختفى تماما حين يفصل بين الشكلين تماما فيعطى الشكل المتجدد منطقة نفوذه التى يباشرها الآن ، ثم يقصر التفعلية على معالجة المسرحية والملحمة .

وعبد الحميد ابراهيم محمد .. يسير فى نفس الدائرة حين يذكر أن القصة موجودة فى العرب البائدة ، وأن القصة الحديثة لاتنتمى الى القصة الغربية ، وانما تعتبر امتدادا للقصة العربية القديمة وفى الوقت نفسه لايستطيع الانسان أن يغفل النتائج القيمة التى وصلت اليها هذه الرسائل ، فكل الذين شاهدوها وتتبعوا مناقشاتها خرجوا ورءوسهم مائلة من كثرة ما استوعبت واحتكت بالافكار التى كانت تنتقل فى مهارة بين هيئة المناقشة وأصحاب الرسائل ، واذا كان الشاعر كمال نشأت قد كسر هذه القاعدة بالسماح ـ عامدا ـ بدخول كافة الافكار الى « المرمى » ، بل لقد كان يساعد من جانبه هذه الافكار ويعدل منها لتسقط فى الشبكة بالموافقة ، أو التصفيق ، أو الابتسام ، ولم يتخل عن هذا الاسلوب حتى فى الوقت الذى تعرض فيه منهج الرسالة للخطر ، وحين يسأل فى هذا بعد « التدكتر » يقول لن أعيد ما فعلته فى الماجستير ، ثم يغمز بعينيه ـ كعادته ـ ويقول ومع هذا كنت أعرف أنى ساحصل على مرتبة الشرف .

وعلى كل ففى الوقت الذى تهنىء فيه هؤلاء الفرسان تدعوهم ـ بل تدعو كل أصحاب الرسائل فى المنطقة العربية ـ الى باب جديد تقدمه « الرسالة » تحت عنوان « رسالتى الجامعية » يدور حول السبب فى اختيار موضوع الرسالة ، ومصاعب البحث وطريقة التغلب عليها ، ودور المشرف ، مع تلخيص لما أضافته الرسالة الى التراث العلمى .. بمعنى أن يكون هذا الباب فى خدمة الذين يبحثون فى هذا المجال ، والذين يسيرون فى نفس الطريق .

« عبده بدوى »

مرثية

إلى روح الدكتور مندور

احقـا قد مضيت ولن تؤوبا ... ولو ناداك «طارق» لن تجيبـا
وان يهرع لدارك قاصـدوها ... فلن يلقوك مطلعـا دؤوبا
وفى كفيك ميزان جديد ... به تزن المؤدب والأديبا
فمن لشباب هذا الجيل يهدى ... سبيل الجيل ان سلك الدروبا؟
ومن يعطى ويمنح عن سخاء ... وحب مابه يحيى القلـوبا ؟
ايا شيخ القبيلة كم هرعنـا ... اليـك لكى نلوذ بك الخطوبا
فكيف ونحن حولك قد وقفنـا ... جميعا ندفع القدر الرهيبـا
تطيش جميع اسـهمنا وتأبى ... سهام الدهر الا أن تصـيبا
رمتنـا اذ رمتك فحطمتنا ... وألجمت المؤاسى والطبيبا
ايا شـيخ القبيلة ان وهمى ... يسر لخاطرى شيئا عجيبـا
يقول بان منـدورا اذا مـا ... مضى عنا .. فعنا لن يغيبـا
فاحمل ـ مثل أمس ـ فوق كفى ... صحائف ترتجى رأيا أريبـا
صحائف فى الصباح اليك تسعى ... وان ولى الشروق سعت غروبا
ومثلى ـ فى الخواطر ـ الف الف ... وان علموا بانك لن تئـوبا
عزائى فيك يـامندور انـا ... وان أذكى الأسى فينا اللهيبـا
سننهل من موارد صافيات ... جعلت ورودها منا قريبا
دعوت الى العدالة وهى حلـم ... يخـاف الحالمون به الرقيبـا
وقدت معارك النقـاد توحى ... بان الفن مـايبنى الشعوبا
وكان السـلم غاية كل رأى ... به جابهت من شرعوا الحروبا
لقد أعطيت لى ولكـل جيـل ... سيأتى بعدنا فكـرا خصيبا
وما خلفته ـ أبدا ـ سيبقى ... يفوح على مدى الأحقاب طيبا
وفى هذا لنا بعض التـاسى ... عساه يخفف الدمع الصبيبا
على من حوله جمـع القلوبا ... ومزق يوم فارقنا القلوبا

للشاعر : سعد جاويش

رسالة العلم

للدكتور عبد الحليم منتصر

تفوق العلماء العرب في الرياضيات

حقا لقد كان وجود الخوارزمي ، وابن الهيثم ، والبيروني ، وابن سينا ، وابن يونس ، والخازن ، كان وجود هؤلاء وامثالهم من العلماء العرب، ضروريا لظهور جاليلو ، ودافنشي ، وكبلر ، وكوبرنيق ، ونيوتن ، وديكارت ، وباكون من علماء النهضة الاوربية ، والا لاضطر الآخرون أن يبدأوا من حيث بدأ الأولون ، ولتأخر سير المدنية عدة قرون .

وفي ذلك يقول المستشرق «فلوريان» كان للعرب عصر مجيد ، عرفوا فيه بانكبابهم على الدرس وسعيهم في ترقية العلم ، ولا نبالغ ، اذا قلنا ان أوربا مدينة لهم بخدمتهم العلمية ، تلك الخدمة التي كانت العامل الاول الاكبر في نهضة القرنين الثالث عشر والرابع عشر .

ويقول المستشرق « ويلز » كانت طريقة العربي أن ينشد الحقيقة بكل استقامة وبساطة وأن يجلوها بكل وضوح وتدقيق ، غير تارك منها شيئا في ظل الابهام والغموض ، فهذه الخاصية جاءتنا عن طريق العرب ولم تهبط على اهل العصر الحاضر عن طريق اللاتين . فالحضارة العربية هي حلقة الاتصال بين حضارة اليونان والحضارة الحالية .

وقد تفوق العلماء العرب في الرياضيات بنوع خاص ، وخاصة الحساب والجبر والهندسة وحساب المثلثات ورياضيات الفلك ، والمثلثات الكروية ،

ويقول الاستاذ قدر طوقان : ان بحوثهم مهدت لاكتشاف اللوغاريتمات ،كما مهدت لحساب التفاضل والتكامل .

لقد أخذ العرب عن الهنود نظام الترقيم ، واستعملوه في الحساب بدلا من حساب الجمل والحروف .

ومازالت الارقام التي نقلها الخوارزمي عن الهنود ، هي المستعملة في معظم البلاد العربية ، وتعرف بالارقام الهندية ، وكذلك الارقام المستعملة في أوربا والمغرب وتونس والجزائر ، وهي المعروفة بالارقام العربية ، وهي الاخرى مقتبسة من نظام الترقيم عند الهنود . وكذلك ابتدعوا طريقة الاحصاء العشري وعرفوا الكسر العشري ، واستعملوا النقطة للدلالة على الصفر ، كما ابتكروا علامة الفاصلة للكسر العشري .

وقد اعترف الغربيون بالفضل للخوارزمي ، فقالوا ان كتابه في الحساب هو الاول من نوعه من حيث المادة والتبويب والتنسيق ، وقد نقل الى اللغة اللاتينية ، وظل زمنا طويلا مرجعا للعلماء والتجار والمحاسبين ، وقد بقي علم الحساب معروفا في أوربا لعدة قرون باسم « الغورثمي » نسبة الى عالمنا محمد ابن موسى الخوارزمي .

أما « الجبر » فللعرب فيه باع وأي باع ، صحيح

أن حل بعض المعادلات الجبرية ، يرجع الى ما قبل الميلاد بالفي سنة ، فقد عرفه البابليون ، وكذلك عرف الاغريق والهنود طريقة حل بعض هذه المعادلات ولكن يظهر انه كما قال بحق المرحوم الدكتور مشرفة

كان ينبغي أن تنتقل هذه المعلومات الى عبقري كالخوارزمي لكي ينشيء علم الجبر ويعلمه للناس أجمعين • وها نحن نرى اللفظ الذي ابتدعه الخوارزمي وهو الجبر ما زال مستعملا في اللغات الأوروبية للدلالة على هذا العلم • وكذلك عرف العرب المعادلات الجبرية وحلوا كثيرا من معادلات الدرجة الثانية ، بل معادلات من قوى أعلى ، وابتكروا حلولا هندسية لمعادلات ابتدعوها ، واستعملوا الرموز في المعادلات الرياضية ، وجمعوا بين الهندسة والجبر . كما استعملوا الجبر في حل بعض الاعمال الهندسية ، ووضعوا أسس علم الهندسة التحليلية • وعرفوا الجذور الصماء ، وكان الخوارزمي أول من استعمل كلمة « أصم » للدلالة على العدد الذي لا جذر له • وكذلك عرفوا الحالة التي يكون فيها الجذر كمية تخيلية • وابتكروا طرقا هندسية لحل بعض معادلات الدرجة الثانية وفي باب المساحة من كتاب الجبر والمقابلة للخوارزمي عمليات هندسية حلها بطرق جبرية •

وتتجلى عبقرية الخوارزمي في انه استطاع أن يستنبط من الهندسة الاغريقية والحساب الهندي علم الجبر ، وقد كانت الطريقة الاغريقية في الحساب يستخدمون تسعة حروف أبجدية للدلالة على الأرقام عقيمة ، بقدر ما كانت هندستهم خصبة ، فقد كانوا من ١ ـ ٩ ثم تسعة أخرى للدلالة على الأرقام من ١٠ ـ ٩٠ ، ثم تسعة أخرى للدلالة على المئات ، وبعد ذلك يستخدمون نفس الأحرف باضافة حركة تشبه الفتحة • وقد نقل العرب هذه الطريقة في الحساب فقد رتبوا حروف المعجم (أ ب جـ د هـ و ز) وجعلوا كل حرف من العشرة الأولى للدلالة على الأرقام من ١ ـ ١٠ ، والعشرة التالية كل حرف بعشرة ، ثم الحروف التالية كل حرف بمائة • ولنتصور صعوبة عمليات الضرب والقسمة بهذه الطريقة •

وتجلت عبقرية « **الحراني** » الذي مهد لاكتشاف اللوغاريتمات ، فوضع كتابا شرح فيه الطريقة التي يمكن بوساطتها اجراء العمليات الحسابية التي تتعلق بالضرب والقسمة ، بوساطة الجمع والطرح ، فمهد مع « **ابن يونس** » الذي كتب في المتواليات العددية والهندسية الى اكتشاف اللوغاريتمات • ووضعت القوانين الخاصة لجمع المتواليات ، واستخراج الجذور وجمع المربعات والمكعبات المتوالية • وفي كتاب « الكاشي » وردت النسبة بين محيط الدائرة وقطرها وهي التي تعرف باسم النسبة التقريبية (ط) ، وقد أعطى قيمتها لستة عشر رقما عشريا ، ولعله أول من أوجدها بهذه الدرجة من الدقة •

ولقد أجاد العرب في بحوث النسبة ، وعرفوا منها العددية والهندسية والتاليفية (لألحان الموسيقى) وموضوعات التناسب واستخراج المجهول بوساطتها. وبالجملة فان هذه المسائل التي تبدو اليوم أولية كان لها أكبر الفضل في تقدم علوم الحساب والجبر •

كذلك ترجم العرب كتاب الأصول لاقليدس ، وزادوا على نظرياته ، وهو يشتمل على خمس عشرة مقالة ، وقد الفوا كتبا على نسقه وابتكروا تمارين جديدة ، وقد الف ابن الهيثم كتابا في الهندسة ، يقول انه جمع فيه الاصول الهندسية والعددية من كتاب « اقليدس » و « ابولدينوس » ، « ونوعت فيه الأصول وقسمتها ، وبرهنت عليها ببراهين » وعلى حين يعترف ابن الهيثم بمصادر كتابه ، فانه جدد في البراهين وفي ترتيب النظريات بطريقة تختلف عن الاصول التي استقى منها •

وللعلماء العرب مؤلفات كثيرة في المساحة والحجوم وتحليل المسائل الهندسية ، وتقسيم الزاوية الى ثلاثة اقسام متساوية ورسم المضلعات المنتظمة • وقد الف كل من ابن الهيثم والبيروني كتبا كثيرة في الهندسة منها رسالة استخراج الأوتار في الدائرة بخواص الخط المنحني ، وفيها برهان جديد لمساحة المثلث ، واستعمل ابن الهيثم الهندسة المستوية والمجسمة في بحوث الضوء ، وتعيين نقط الانعكاس في المرايا الكرية والاسطوانية والمخروطية المحدبة منها والمقعرة ، وكذلك فعل نصير الدين الطوسي ، حين ابتكر واضاف الكثير الى هندسة المتوازيات •

وقد قسم العرب الهندسة الى نوعين عقلية ، وحسية ، تعرف الأولى عقلا وفهما ، اما الثانية فتعرف قدرا وكما •

وكذلك يرجع الفضل فى وضع علم حساب المثلثات مستقلا عن علم الفلك الى بعض العلماء العرب ، واستعملوا الجيب بدلا من وتر ضعف القوس ، وأدخلوا المماس فى النسب المثلثية وممن اشتهر من العلماء العرب فى حساب المثلثات ، البوزجانى ، والطوسى ، والبيرونى والخازن وجابر بن الأفلح ٠

ولعلنا لا ننسى فضل موسى بن شاكر وبنيه الثلاثة ، محمد واحمد وحسن ، فقد برعوا جميعا فى علم الميكانيكا وكانوا يسمونه علم « الحيل » ٠ كما لا ننسى فضل « الخازن » الذى ربط بين الجاذبية والسرعة والمسافة والثقل ٠ لقد لاحظ هذه العلاقة قبل نيوتن بعدة قرون ، وانما ربط بينها نيوتن فى معادلات وقوانين ٠

هذه جميعا معلومات ونظريات وابتكارات رياضية على أعظم جانب من الأهمية ، ويرجع الفضل كل الفضل فى كشفها الى العلماء العرب ٠

أما الفلك فقد أتى فيه العلماء العرب بالأعاجيب، وخرجت بحوثهم فيه من النظريات الى العمليات والرصد قالوا باستدارة الأرض ، وعملوا الأزياج ، وضبطوا حركة الشمس ، وصنعوا الاسطرلاب والآلات الفلكية ، وحققوا مواقع كثير من النجوم ، ورصدوا الاعتدالين ، وكتبوا عن البقع الشمسية ، وقاسوا محيط الارض ، كذلك عرفوا قبل العصر العباسى ، رصد الكواكب والنجوم وحركاتها والكسوف والخسوف ، وأقاموا المراصد الكثيرة ٠

صحيح أن العرب قد اعتمدوا فى دراستهم الأولى لعلم الفلك على الفلك الاغريقى ، ممثلا فى أعمال ابرخس ، وعلى الفلك الاسكندرى ممثلا فى مجسطى بطليموس ، وقد ترجموا هذه الكتب وحرروها ونقدوها وأضافوا اليها وعدلوها ، كما قرؤوا أعمال الكلدان ، والسريان والفرس والهنود ٠ ولكن الصحيح أيضا أنهم فقدوا وابتكروا وأضافوا الكثير الى أعمال هؤلاء وأولئك ٠

وقد بدأ العرب منذ العصر الأموى بالاهتمام بعلم الفلك فترجموا كتاب مفتاح النجوم المنسوب الى هرمس الحكيم ، وكان ابو جعفر المنصور الخليفة العباسى شغوفا بالفلك والنجوم ، وقد أمر بترجمة الكتب الهندية فى الفلك ، فظهر السندهند الكبير ، وبقى معمولا به الى أيام المأمون ، واختصره الخوارزمى وصنع منه زيجه المشهور، وقد زاوج فيه بين مذاهب الهند والفرس وبطليموس ٠

وتتابع الفلكيون العرب بعد ذلك من امثال البتانى ، والبوزجانى ، والفرغانى ، والطوسى ، والبيرونى ، ويحيى بن أبى منصور ، وعلى بن عيسى، وعلى بن البحترى ، وموسى بن شاكر وابن يونس وثابت بن قره وابن الهيثم ، ولهم أزياج ورصدات بالغة غاية الدقة وأقاموا كثيرا من المراصد ، وحسبوا طول السنة الشمسية والاعتدالين ، وحققوا مواقع كثير من النجوم ٠ وكانت بحوث هؤلاء هى التى مهدت الطريق للنهضة الفلكية الكبرى التى ازدهت بكبلر وكوبرنيق ٠

لقد وافقوا بطليموس فى أشياء وخالفوه فى أشياء ، ومنهم من استنكر الربط بين حركات النجوم والكواكب وبين حظوظ الناس مما كان يسمى التنجيم كالكندى والفارابى وابن سينا ٠ فيقول ابن سينا ان قول المنجمين باثر الكواكب على الناس من خير وشر ، انما هو قول هراء ، وقد أخذوه تقليدا من غير برهان ولا قياس ٠ ويقول الفارابى ان من الخطأ الكبير ما يزعمه الزاعمون أن بعض الكواكب يجلب السعادة وبعضها يجلب النحس ، ودعاوى المنجمين ونبوآتهم لا تستحق الا الشك والارتياب ٠

« د٠ عبدالحليم منتصر »

عيون البصائر

تأليف : محمد البشير الابراهيمي



لقد خلقت تجربة شعبنا العربى النضالية ضد الاستعمار والتجزئة نماذج فريدة من الرجال تميزوا بالاخلاص والوعي والمقدرة الفائقة على مواجهة واقعهم القومي المجزأ .. أحسوا بضرورة الوحدة الشاملة وعبروا عنها فى وقت كان فيه الاستقلال الوطنى حلما ومطلبا بعيد المنال ، واجهوا الاستعمار بشجاعة المجاهدين في سبيل الله وذلك فى نطاق أيديوليجيتهم الثورية العقائدية التى تعبر عن واقع مجتمعهم العربى الاسلامى ، هذه الأيديولوجية التى تميزت بطابع **الشمول القومي والانسانى .**

ان هناك أناسا ليست الكلمة بالنسبة اليهم سوى أداة تؤدى الى العدم ، فهى لديهم مجرد صور بيانية خلابة ، ترن فى الهواء ، أو مجرد كمية من المداد على صفحة الورق ، ولكن رواد شعبنا المناضلين أحسوا بأن ميزانية التاريخ ليست رصيدا من الكلام ومن أعداد الكلمات ، بل آمنوا بانها كتلا من النشاط المادى ، ومن الافكار التى لها كثافة الواقع ووزنه .

ويعتبر المرحوم الامام محمد البشير الابراهيمى أحد أولئك الرواد الذين عرفوا معنى الكلمة وأهميتها وعرفوا كيف يدعمون هذه الكلمة بالوسائل التنظيمية الفعالة .. هذه الكلمة وتلك الوسائل التى كانت الأساس القوى المتين الذى قامت عليه ثورة شعبنا في الجزائر لتضرب اروع مثل من أمثلة البطولة والفداء حيث كان بوسعها ان تقدم من أبنائها مليونا من الشهداء البررة كثمن فادح للاستقلال ، ويخطىء من يظن أن كفاح شعبنا العربى فى الجزائر قبل الاستقلال كانت تحركه فقط مطالبه العادلة فى الاستقلال الوطنى لأننا بذلك نكون قد وضعنا شعبنا هناك فى مصاف الدول والشعوب التى كافحت من أجل الاستقلال فقط . ولكنه كان كفاحا من أجل الاستقلال والوحدة العربية الشاملة والعدالة الاجتماعية بمفهومها العربى الاسلامى ـ لقد حدد جيل الرواد المناضلين أمثال ـ ابن باديس ومحمد البشير الابراهيمى ـ المجال العام الذى تحركت فيه ثورة شعبنا فى الجزائر .. وهو مجال عربى اسلامى وانسانى فى نفس الوقت ، ولعل أروع ما فى هذا المجال العربى الاسلامى وفى حركته الثورية .. هو

ان المجاهد الذى مات ـ مات وهو شهيد الجهاد ذودا عن عروبته ودينه ، والمجاهد الذى عاش ـ عاش لكى يتم رسالة الشهيد ورسالته التى آمن بها ضمن مجالها المحدد .

ولعل اهم شىء يلفت نظر كل باحث فى الشئون السياسية والاجتماعية فى المغرب العربى ـ وبخاصة الجزائر ، هو أن الدين الاسلامى وعلماء الدين بالذات لم يقصروا دورهم هناك فى حدود اصدار الفتاوى سواء الصحيح منها أو الملفق ـ بل قاموا بدورهم القيادى فى وسط الجماهير ـ وتجاوزوا ذلك فحاربوا رجال الدين الانهزاميين الذين يكثرون دائما فى عهود الاستعمار ـ كانوا وهم رجال دين يحاربون الاستعمار ورجال الدين الآخرين ومن هنا استطاعوا أن يرسموا الطريق الصحيح للجماهير بطريقة فعالة ويدفعوتها الى الأمام بقوة جديدة نقية ، وعزم جديد لا يلين مع تزويدها بما يخصب مضمونها الروحى والسياسى .

وكتاب اليوم « **عيون البصائر** » لمؤلفه المرحوم محمد البشير الابراهيمى الذى لاقى ربه فى الشهر الماضى من ست وسبعين عاما قضاها فى الجهاد والنضال من أجل عالم عربى اسلامى موحد متحرر ـ هو كتاب يقدم لنا ذلك الوجه المشرق للفكر العربى الاسلامى فى جزائرنا العربية الاسلامية

والكتاب ، وهو مجموعة المقالات التى نشرها المؤلف كافتتاحيات لجريدة البصائر ، يمثل فى الدرجة الأولى وجهة نظر جمعية العلماء التى اسسها المرحوم الامام عبد الحميد بن باديس . وقادها بعده ودعمها المرحوم الامام محمد البشير الابراهيمى .

وعن جمعية العلماء يقول المؤلف ـ ان جمعية العلماء تنازع وتصارع فى كل ميدان ـ « ومحل هذا النزاع وهدف هذا الصراع هو الأمة الجزائرية، فالجمعية تريدها أمة « عربية مسلمة » كما هو قسمها فى القدر وحظها فى التاريخ ، وحقها فى الارث ، وحقيقتها فى الواقع والمصطلح » تريدها كذلك وتعمل لتحقيق ذلك ، والاستعمار يريدها هيكلا لا تترابط اجزاؤه ، ولا تتماسك أعضاؤه .

ورجال السياسة من قومنا يريدونها متبوأ لزعامتهم المزعومة ، وسياداتهم الموهومة ، فيعللونها بالأباطيل ، ويروضونها على التصفيق والتهليل ، ويسوسونها بطرقية سياسية . لا تختلف عن تلك الطرق الدينية ـ التى حاربناها حتى قتلناها ـ فى كثير ولا قليل »

لقد حررت جمعية العلماء الشعب الجزائرى بذلك التحرير العقلى الذى اساسه :

توحيد الله فوحدت الميول المختلفة ، والمشارب المتباينة ، والنزعات المتضاربة وبذلك التحرير أيقظت فى الأمة قوة التمييز بين الصالح من الرجال والصحيح من المبادىء وبين الطالح والزائف منهما وبذلك التحرير اراحت الأمة من اصنام كانت تتعبدها باسم الدين أو باسم السياسة . »

فالاسلام والعروبة دعامتان تمسكان هذا الوطن أن يزول ، وفى فصل الاسلام عن الحكومة تثبيت للدعامة الاولى ، وفى التعليم العربى تمكين للجنسية العربية ، ولا يقدر قدر هاتين الدعامتين ، ولا يعمل جاهدا فى تثبيتها ـ الا من يعلم ـ كما نعلم أن الاستعمار جاء الى هذا الوطن بثلاثة اشياء ، ليمحو بها ثلاثة اشياء جاء باللاتينية ليغمر بها العروبة ، وجاء باللغة الفرنسية ليقضى بها على اللغة العربية وجاء بالمسيحية لينسخ بها الاسلام .

لقد جاءت فرنسا الى الجزائر بالراهب « الاستعمارى » لتفسد به على المسلمين دينهم ، وتفتنهم به عن عقائدهم ، وتشككهم بتثليثه فى توحيدهم ، وتضار فى السنتهم كلمة « الهادى » بكلمة الفادى . ذلك كله بعد ما أمدته بالعون ، وضمنت له الحرية ، وكفرت به هناك لتؤمن به هنا .

ان الاستعمار القائم على الجندى والمعلم والطبيب والراهب هيكل حيوانى يمشى على أربع .. وان الاستعمار قد قضى بواسطة هؤلاء الاربعة على عشرة ملايين من البشر ، فرمى مواهبهم بالتعطيل ، وعقولهم بالخمود ، واذهانهم بالركود ، وأفكارهم بالعقم ، واضاع على الانسانية بضياعهم عشرة ملايين من المواهب والعقول والأذهان والأفكار، وهى رأس مال عظيم كانت تستعين به ـ لولا الاستعمار ـ على الخير العام والمنفعة ، وتنتفع به فى اقامة دعائم المدنية .

لقد جاء الاستعمار الفرنسى الى الجزائر يحمل السيف والصليب ، ذاك للتمكن ، وهذا للتمكين ، فملك الارض واستعبد الرقاب ، وفرض الجزى ، وسخر العقول والابدان ، ولو وقف عند حدود الدنيويات لقلنا : تلك هى طبيعة الاستعمار الجائع تدفعه الشهوات الى اللذات ، فيجرى الى مداها

وبقف ، وتدفعه الانانيــة الى الجــوانية فيلتقــم ولا ينتقم ، ولكنه كان اســتعمارا دينيا مســيحيا عاريا ، وقف للاسلام بالمرصاد من اول يوم ، وانتهك حرماته من اول يوم ، فابتز امواله الموقوفه بالقهر، وتصرف فى معابده بالتحويل والهــدم ، وتحــكم فى الباقى منها بالاحتــكار والاســتبداد . وتدخل فى شــعائره بالتضييــق والتشــديد ، كل ذلك بروح مســيحية رومانية تشع بالحقد وتفور بالانتقام .

ان فى هذا الوطن الجزائرى شعبا عربيا مسلما، وهو ذو ميراث روحانى عريق ، هو الاسلام وآدابه واخلاقه ، وذو ميراث مادى شاده اسلافه لحفظ ذلك التراث ، وهو المســاجد بهياكلها واوقافها ، وذو نظام قضائى مصلحى ، لحفظ تكوينه العائلى والاجتماعى ، وذو منظومة من الفضائل العربية الشرقية منتقلة بالارث الطبيعى من الأصول الســامية، الى الفروع النامية ، لحفظ خصائصه الجنســية من التحلل والادغام ، وذو لســان وسع وحى الله وخلد حكمة الفطرة ، وجرى بالشعر والفن ، وحوى سر البيان ، وجلا مكنونات الفكر ، ثم خدم العلم وسجل التاريخ ، وشاد الحضارة ، ووضع معالم التشريع ، وحدا بركب الانسانية حينا فاطرب .

ان العربية هى لســان العروبة ، الناطق بامجادها، الناشر لمفاخرهــا وحكمهــا ، فكل مــدع للعروبة تشاهده لسانه ، وكل معتز بالعروبة فهو ذليل ، الا أن تمده هذ المضغة اللينة بالنصر والتاييد .

ان الشعب الجزائرى فرع باسق من تلك الدوحة الفينانة وزهرة عبقة من تلك الروضة الغناء ، عدت عليه عوادى الدهر ، فنسى مجد العروبة ولكنه لم ينس أبوتها ، وابتلاه الاســتعمار ــ عن قصــد ــ بالبلبلة ، فانحرفت فيه الحروف عن مخارجها الا الضاد ، ولم يبق من العروبة مع هذا وذاك الا سمات وشمائل، ولا من العربية الا آيات ومخائل .

وجاءت جمعيــة العلماء ، على عبــوس الدهر ، وتنكر من الأقوياء ، فنفخت من روح العروبة فى تلك الأنســاب ، فاذا هى صريحة ، وسكبت من سر البيان العربى فى تلك الألسنة فاذا هى فصيحة ، وأجالت الأقلام فى كشف تلك الكنوز فاذا هى ناصعة بيضاء لم يزدها تقادم الزمان الا جدة .

وجمعية العلماء هى التى حققت للجزائر نســبه العربى الصريح ، وهى التى اثبتت للاستعمار أن الدماء البربرية التى مازجت الدم العربى أصبحت عربية بحكم الاســلام ، وبحكم العمومة والخئولة الممتدتين فى سلسلة من الزمن ، ذرعها ثلاثة عشر قرنا ، مــزاج فطرى ، أحــكمت القــدرة تداخــل أجزائه . والتحام نســبى وصــل التاريخ أطرافه مرتين .

وفى نداء ثورى شجاع يخاطب المؤلف شعبنا فى الجزائر فيقول ٠٠ سنة ١٩٤٩ ــ

« لا استجداء فى الدين بعد اليوم ــ أيتها الأمة ــ كونى مؤمنة بالله واليوم الآخر ، وبمحمد وبالقرآن، وعفا الله عما ســلف من ذلك . أما نحن فقد كنا علماء دين ، ودعاة علم وتربية ، وزراع خير ورحمة ولكن الحكومة تعــد هذا كله سياســة ، وتعتبرنا لأجله ســياسيين ، فليكن ذلك ، ولنكن علمـاء وســياسيين ، ولنكن كل شيء ينفع أمتنا ويحمى ديننا ولغتنا . مادمت لا تجد صاحبك الا حيث تكره ، فمن العــدل الا يجدك صــاحبك الا حيث يكره . »

ولم تكن اهتمامات مفكرنا العظيم المرحوم محمد البشير الابراهيمى منحصرة فى نطاق الوطــن الجزائرى فقــط .. ولكننا نراه يكتب عن ليبيا داعيا وموجها شعبها الى طرق النضال الصحيحة ، ويكتب عن فلسطين بقلب دام حزين مرسلا نداءاته الثورية الى العرب فيقول :

« ايها العرب . ان قضية فلسطين محنة امتحن الله بها ضمائركم وهممكم وأموالــكم ووحــدتكم ، وليست فلسطين لعرب فلسطين وحدهم ، وانما هى للعرب كلهم . وليست حقوق العرب فيها تنال بأنها حق فى نفســها ، وليست تنــال بالهوينا والضعف ، وليست تنال بالشعريات والخطابيات ، وانما تنال بالتصميم والحزم والاتحاد والقوة

ان الصهيونية وانصارها مصممون . فقــابلوا التصميم بتصميم أقوى منه وقابلوا الاتحاد باتحاد أمتن منه .

وكونوا حائطا لا صــدع فيه
وصــفا لا يرقع بالكسالى

ولم يكتف مناضلنا الرائد بمئــات المقــالات التى كتبها عن فلسطين وانما أتبع القول بالعمل فكون اللجان فى طول الجزائر وعرضــها لمناصرة فلسطين وجمعت هذه اللجان التبرعات التى بلغت تسعة ملايين من الفرنكات لصالح النضال ضــد الصهيونية العالمية وذلك تحت سمع الاســتعمار الفرنسى وبصره ومقاومته لهذه اللجان والتنكيل باعضائها .. وأرسل البشــير الابراهيمى هذه

الملايين من الفرنكات الى الجامعة العربية عن طريق الأستاذ أحمد عبد الخالق ثروت سفير مصر فى ذلك الوقت بفرنسا ..ولم يكن البشير الابراهيمى يملك شيئا فى دنياه سوى مكتبته الخاصة فتبرع بها لفلسطين ولشعب فلسطين العربى ..

وشارك مجاهدنا الكبير شعبنا العربى فى مصر نضاله من اجل الاستقلال فكتب كثيرا من المقالات مؤيدا وموجها حركة شعبنا فى سبيل الاستقلال والثورة ..

يقول المؤلف ، فى مقال نشر له بالرسالة عام ١٩٥٢ :

« يا مصر .. انت اليوم مثابة العروبة فى تراثها حيى بيانها ، وبسقت افنانها ، وفى رياضك تفتحت ازهارها ، وغردت بلابلها ، ففى ذمة كل عربى حر الدم لك دين وواجب الوفاء ،وهذا اجل الوفاء » .

« يا مصر .. انهم لم يقاتلوك بالحديد والنار ، الا ساعة من نهار ، ولكنهم قاتلوك فى الزمن كله بالأستاذ الذى يفسد الفكر ، وبالكتاب الذى يزرع الشك ، وبالعلم الذى يمرض اليقين ، وبالصحيفة التى تنشر الرذيلة ، وبالفيلم الذى يزين الفاحشة، وبالبغى التى تخرب البيت ، وبالحشيش الذى يهدم الصحة ، وبالممثلة التى تمثل الفجور ، وبالراقصة التى تغرى بالتخنث ، وبالمهازل التى تقتل الجد والشهامة ، وبالخمرة التى تذهب بالدين والبدن والعقل والمال ، وبالشهوات التى تفسد الرجولة ، وبالكماليات التى تثقل الحياة ، وبالعادات التى تناقض فطرة الله، وبالمعانى الكافرة التى تطرد المعانى المؤمنة من القلوب ، فان شئت ان تذيبى هذه الأسلحة كلها فى ايدى اصحابها فما امرك الا واحدة ، وهى ان تقولى : انى مسلمة ..»

هكذا كان يفكر الامام المجاهد محمد البشير الابراهيمى – وهكذا كانت آراؤه واهتماماته بشمولها الواعى لوطننا العربى من الخليج الى المحيط .. تغطى كل جزء من اجزاء وطننا بحب وحنان – وعندما لقى ربه فى الشهر الماضى – كانت الجزائر العربية المسلمة المتحررة تفتح ذراعيها للعالم أجمع وللانسانية المعذبة فى هذا العالم – لكى تكون أرضها الحرة . اروع مكان يلتقى فيه زعماء آسيا وافريقيا فى مؤتمرهم الآسيوى الافريقى الثانى لكى يضعوا بأيديهم أسس سلام عالمى قائم على العدل والمساواة .

« تحسين عبد الحى »

عابرة

للشاعر : محمود عماد

حسناء مسبلة الشعو
ر على محياها النضير
يا من رأى الصفصافة
انسدلت على وجه الغدير !!
مرت به صبحا كنسمة
روضة تشفى الصدور
من أين جاءت ليس يد
رى ، أو الى اين المسير ؟
الدعوة أو غزوة
أو ما عداها من امور
لكنها فى لمحة
تركت له منها الكثير
وأرته دنيا ربما
جهلت وأعوزها البصير
افما ترينا الأفق ومضة
نيزك عند العبور ؟

***

يا للجمال تراه يد
رى انه حدث كبير ؟
لو كان يدرى ما أوى
يوما الى مأوى حقير
فى اى برج سوف يغر
ب ذلك النجم العبور ؟
وعلى مروج ضوؤه
يلقى هنالك أم صخور ؟
تمضى النجوم لشأنها
والصابئون الى السعير !!

« محمود عماد »



قراءات في المجلات العربية

يقدمها محمد العوانى

● **مبادىء الاسلام المثالية :**

كتب الاستاذ « احمد حسن الزيات » في العدد الثانى من مجلة « الوعى الاسلامى » التى تصدر عن وزارة الاوقاف الكويتية ـ مقالا عما تضمنته دعوة الاسلام من المبادىء المثالية . بين فيه ان الرسول صلى الله عليه وسلم دعا « الى تكريم الانسان ؛ وتنظيم العمران ؛ وتعميم الخير ، وتحقيق السعادة عن طريق التوحيد والمؤخاة والمساواة والحرية والسلام » .

ووضح أن المقصود من التوحيد هو توحيد الله ، وتوحيد العقيدة ، وتوحيد الغاية ، وتوحيد اللغة ، وتوحيد التشريع ، وتوحيد الدين والدنيا، والتوحيد «ركن من اركان الدين ، وعنوان من عناوينه ، وهو من الكلم الجوامع التى وعت جوهر الاصلاح وسر النجاح لكل مجتمع وأمة .

وتناول الوحدة الانسانية فوضح أنها مزية من مزايا الدعوة المحمدية وان الاسلام فى سبيلها صدق بكل دين أنزل وبكل نبى أرسل ، ويقول عن المسلمين انهم « وحدهم الذين يفهمون الانسان بمعناه الصحيح لانهم أتباع محمد ، ومحمد وحده هو الذى أعلن حقوق الانسان والله وحده هو الذى الهم رسوله هذه الحقوق لانه أرسله رحمة للذين استضعفوا فى الارض لقلة المال كالمساكين ، أو لفقد العشير كالموالى ، أو لفقد النصير كالارقاء ، أو لطبيعة الخلقة كالنساء ، فكفل الرزق للفقير بالزكاة ، وضمن العز للذليل بالعدل ، ويسر الحرية للرقيق بالعتق ، واعطى الحق للمرأة بالمساواة » .

● **نهرو .. وفلسفته السياسية :**

وفى مجلة « الثقافة » العدد ١٠٠ الصادر فى ١٥ـ٦ـ١٩٦٥ كتب الدكتور عبد الرحمن بدوى مقالا عن الزعيم الهندى نهرو الذى امضى حياته مكافحا فى سبيل تحرير الهند خارجيا بطرد الغاصب ، وداخليا بتحقيق العدالة الاجتماعية والحرية الفردية ودفع الهند فى ركب الحضارة العالمى .

وبين أن نهرو مر باربع مراحل فى تطوره السياسى الاجتماعى هى :

مذهب الحرية الكلاسيكى القائم على توكيد حقوق الانسان ، والديمقراطية السياسية ، واحترام حقوق الفرد .

والاشتراكية الفابية الاتجاه ، التى تأثر بها ابان دراسته فى جامعة كمبردج والغاندية التى تدعو الى عدم العنف واشتراط طهارة الوسائل فى النضال السياسى والاجتماعى .

والماركسية النظرية التى بدأ يتأثر بها منذ سنة ١٩٢٧ حتى قيام الحرب العالمية الثانية .

ويرى الدكتور بدوى أن الماركسية استهوت نهرو لظهورها بمظهر علمى فى معالجة المشاكل الاجتماعية وكان على علم بما يوجه اليها من نقد فقد حاول بعض

أنصارها تعديلها بما يتلاءم مع ما وقع فى العالم من تطورات بعد ماركس فندت نبوءاته وبرهنت على فساد تحليله ٠

وقد تغيرت نظرة نهرو للماركسية وتبدد اعجابه بها وراح يوضح موقفه منها ومن تطبيقاتها ، ففي مؤتمر صحفي ببمباى فى ٢٧ـ٢ـ١٩٤٦ قال « ان الشيوعيين أبعد ما يكونون عن النزعة الثورية ، انهم فى الواقع رجعيون » كما صرح فى مؤتمر صحفي عقد فى نيودلهى بتاريخ ٢٨ فبراير ١٩٥٢ قائلا « أعتقد أن ماركس أصبح اليوم عتيقا قد عفى عليه ، والحديث اليوم عن الماركسية رجعية ، ان صح هذا التعبير ، وأعتقد أن الشيوعيين بهيجانهم واحتدامهم رجعيون تماما فى نظرتهم من بعض النواحي » ٠

ويختم الدكتور بحثه مشيرا الى اهم الصفات التى اتصف بها نهرو ، ذلك انه كان يحب الحرية ، وينزع نزعة انسانية تحترم القيم الفردية ، ولا تضحى بالفرد الا فى سبيل القيم الانسانية العليا ٠٠ وانه لايبرر لأية غاية مهما علت استخدام وسائل خسيسة ٠٠ وانه كان متفتح الآفاق لكل الاتجاهات لايحد فكره بمذهب قطعى جازم جامد ٠

● **الدكتور محمد مندور :**

ونعت مجلة «القصة» شيخ النقاد المرحوم الدكتور محمد مندور ، فكتب رئيس التحرير محمود تيمور كلمة قال فيها « لعل أكبر ما يميز الدكتور مندور أنه جرى فى النقد أول ما جرى على ما درس من مناهج وأصول اتباعية مقررة ، بيد أنه لم يتعصب لها ، ولم يقف عندها ، بل ساير الجديد فى عالم الفكر ، وتابع التطور فى مذاهب الادب ، ولم يضرب صفحا عن المستحدث من أساليب النقد ، واذا هو يتمثله ويزنه أدق وزن ، ويخرج منه ناقدا أصيلا ، بعيد افق النظر ، مصقول الذوق ، عدل التقدير مكتسبا من السماحة والمرونة ما يعصمه من التعسف ، وينأى به عن الجمود » ٠

● **التعاون الاجتماعي :**

ونشر الجزء الثامن من مجلة «الاقلام» العراقية مقالا عن التراث كتبه الشيخ نديم الجسر تطرق فيه الى ناحية التعاون الاجتماعي فى تراثنا فاوضح أنه ليست هناك شريعة غير الاسلام فرضت الزكاة وجعلتها ركنا من أركانه وأنه ما من مذهب اجتماعي قديم أو حديث استطاع أن يجمع ، فى تناسق كامل بين تقديس حق الفرد ، لخيره وخير المجتمع ، وتقديس حق المجتمع لخيره وخير الفرد كما فعل الاسلام حتى علق سعادة الفرد على تماسك المجتمع وعلق تماسك المجتمع على سعادة الفرد ، وجعل مبدا التضحية بالاموال والارواح فى سبيل التعاون الاجتماعي من صلب العقيدة وصميم الايمان وأضاف الى ذلك أن تراثنا الاجتماعي النابع من صميم عقيدتنا وشريعتنا قد جعلنا امة وسطا بين تطرف الرأسمالية فى الحرية الفردية الى حد الفوضى وتطرف الشيوعية فى تقييدها الى حد الكبت للغريزة ٠

● **انتشار الدعوة الاسلامية فى الهند :**

و « محيى الدين الالوائى » فى مجلة « منبر الاسلام » يتناول انتشار الدعوة الاسلامية فى الهند فيوضح أن الاسلام انتشر فى ربوعها على ايدى دعاة مصلحين من العرب والهنود ، ضحوا بنفسهم ونفيسهم فى سبيل اعلائه ٠ وشرح بالتفصيل الاسباب التى ساعدت على هذا الانتشار وأرجع ذلك الى :

الوضع الذى كان سائدا فى البلاد من نظام الطبقات والوثنية والعادات الخرافية ثم اخلاص العلماء الذين كانوا يعملون لنشر دين الحق من الاسباب التى أدت الى رواج هذا الدين فقد كانوا قدوة متى عاملين بمقتضى المبادىء الاسلامية السمحة ٠ ووضح الألوائى فى نهاية المقال الأسباب التى أدت الى ركود الدعوة الاسلامية فى الهند وتقلص ظلها بعد أن توطدت اركانها وحصرها فيما يلى :

١ ـ افلات زمام الدعوة من ايدى دعاة مصلحين ومتنورين الى أشخاص تكدرت عقائدهم باوساخ البدع والخرافات ، وابتعدت عقولهم عن المعين الصافى للتعاليم القرآنية والاخلاق النبوية ٠

٢ ـ العلماء المتأخرون الذين جاءوا الى الهند من الخارج فى بعض العهود والذين كانوا يعتمدون على العلوم الفرعية وما كانوا يعنون بفهم القرآن ومبادئه والسنة النبوية وارشاداتها ٠

٣ ـ دسائس ومكائد أعداء الهند الذين جاءوا من البلدان الاستعمارية ، لكى يضعفوا مركز البلاد وشعبها معنويا أولا وماديا أخيرا ، ولانهم رأوا فى الاسلام شعلة وهاجة لتحرير العقول وتنوير القلوب ٠

« **محمد العوانى** »

البريد الأدبي



كلمات .. تكدر محيطات

بقلم عيسى متولي

عاد الرسـول الحبيب الى بيته ، وسأل عائشة : من زارك اليوم ؟..

وغاب اسم الزائرة عن ذاكرة أم المؤمنين ، فقالت : السيدة البدينة القصيرة .. دون قصد الاساءة اليها ، في غيبتها .. فقد كانت الزائرة بدينة الجسم قصيرة القامة ..

فغضب الرسول .. وقال لزوجه :

ـ لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لكدرته !..

ولم تطعن عائشة في صديقتها ، أو تخوض في سيرتها ، بل وصفتها بحقيقتها ، اذ غاب اسمها عن لسانها .. ومع ذلك وصف الرسول كلمتها بأنها « لو مزجت بماء البحر لكدرته » !..

ويا لهول ما تنطقه ألسنتنا في وصف الناس .. ألسنا نجيء شيئا ادا !..

فما أكثر ما نخوض في سيرهم ، والطعن في ذممهم، وأعراضهم، وكرامتهم !..

تتقابل الصديقات ، بالعناق والقبلات ، ولا تكاد الصـديقة تتوارى عن الجمع حتى يتناولن سيرتها ، وسلوكها .. وما زالت حرارة القبل في الشفاه !! ..

وكذلك في دنيا الرجال .. في المقاهي .. وفي المنتديات .. يخوضون في الحديث عن الناس ، ويسلقونهم بألسنة حداد ..

ما أبشع ما ينسبونه اليهم من اتهامات ...
وما أبشع ما يصفونهم به من صفات ...
كلمات لو مزجت بماء المحيطات لكدرتها ...
وحولتها دما مسفوحا !!..

عقارب الحقد في الأدب

بقلم : عبد الخالق عبد الرحمن ـ بغداد

نحن نعيش في هذه الحياة الفسيحة الأرجاء وعلى كوكبنـا الأرضي منذ عصور واغلة في القدم ، والأرض غنية للذين يشقون طريقهم فيها ويبذلون جهدهم ، ويمشون في مناكبها ويستخرجون خيراتها . والانسان المثابر يجد في أرجاء هذه الدنيا الفرصـة التي تنتظره في شتى مناحي الحياة ، وان شعلة الحياة الملتهبة لا تخمد جذوتها ما بقيت الحياة الانسانية على وجه هذه البسيطة.

والحياة كانت وما زالت تضيق بأولئك الذين غشيت عيونهم غشاوة فهم لا يبصرون ، ولم يستطيعوا ان يؤدوا أدوارهم في الحياة كما يؤديها غيرهم من الذين وهبوا نفوسهم للمجتمع ، وسعوا الى عمل الخير ، فكانوا اللبنات الخيرة التي يقوم عليهـا مجتمعنا الانساني .

فالتقدم والتقهقر ، والنجاح والفشـل ، والقدرة والعجز دائما وأبدا تسيران جنبا الى جنب في خضم هذه الحيـاة ، أما العلو والضعة ، والسمو والاسفاف فتنمو في افئدة الناس أنفسهم ، وهم الذين يختارون سبيلهم ويشقون طريقهم في الحياة .

والانسان في حياته على مر العصور لابد له من المغامرة في هذه الحياة وان يشق طريقه وسط هذه الجلامد المتحجرة ، الا ان الحياة تفيض في كل جيل بأنماط شتى من الآمال والاحـلام ، والدوافع والفرص ، والناس هم الذين يختارون لأنفسهم ما يوافق ميولهم واتجاهاتهم ويتحملون عواقب اختيارهم ، ولذلك لم يخل عصر من العصور من وجـود النوابغ النابهين الى جانب الهمل الخاملين وهؤلاء النابهين الذين يشقون طريقهم في الحياة ويبرزون أترابهم ومنافسيهم يكونون موضع الحقد والسخرية من معاصريهم،

ولكنهم بقوة ارادتهم ، وعلو همتهم يصلون قمة المجد ويحلقون في سماء الخلود ·

فهذا الامام ابو بكر بن دريد الأزدي الذي يقول فيه المسعودي في مروج ذهبه : (وكان ابن دريد ممن برع في زماننا في الشعر وانتهى في اللغة وقام مقام الخليل بن احمد واورد اشياء في اللغة لم توجد في كتب المتقدمين وكان يذهب في الشعر كل مذهب فطورا يجزل وطورا يرق) وقال ابو الطيب اللغوي في كتاب مراتب النحويين « ابن دريد هو الذي انتهت اليه لغة البصريين كان احفظ الناس واوسعهم علما واقدرهم على الشعر وما ازدحم العلم والشعر في صدر أحد ازدحاما مهما في صدر خلف الاحمر وابن دريد » وبالرغم من شهادة معاصريه له بجزالة شعره ، وسعة علمه وفائق قدرته ، نرى عقارب الحقد التي قال عنها المرحوم الاستاذ علي الجارم « لو فتشت عنها لما وجدت جحورها الا في صدور الأدباء » اقول نرى هذا الحقد الدفين قد وغل في صدور حاسديه من أدباء عصره فراحوا يكيلون له السباب والشتائم ويتهمونه مما هو براء منه قال أبو حفص عمر ابن شاهين الواعظ (١) :كنا ندخل على ابي بكر بن دريدونستحي منه مما نرى من العيدان المعلقة والشراب المصفى وقال أبو ذر الهروي : (سمعت أبا منصور الازهري يقول : « دخلت على ابن دريد فرايته سكران فلم اعد اليه » · وقال حمزة بن يوسف : « سألت الدار قطني عن ابن دريد فقال :(تكلموا فيه وقيل انه كان يتسامح في الرواية فيسند الى كل واحد ما يخطر بباله ·

لقد الف ابن دريد كتاب (الجمهرة في اللغة) وقد حسده جماعة من اقرانه على تاليف هذا الكتاب القيم ومنهم نفطويه الذي رماه بأنه سرق هذا الكتاب من كتاب العين للخليل بن أحمد وضمنها بأبيات قال فيها :

ابن دريد بقره ... وفيه عي وشره
ويدعي من حمقه ... وضع كتاب الجمهره
وهو كتاب العين الا ... انه قد غيره

وقد رد عليه ابن دريد بالأبيات التالية :

لو انزل الوحي على نفطويه
لكان ذاك الوحي سخطا عليه
وشاعر يدعى بنصف اسمه
مستأهل للصفع في اخدعيه
أف على النحو وأربابه
قد صار من اربابه نفطويه
أحرقه الله بنصف اسمه
وصير الباقي صراخا عليه

وهذا ابو الطيب المتنبي يدخل على سيف الدولة مطاطيء الراس ويتحفز أعداء أبي الطيب الذين اكل الحسد قلوبهم للوثوب فيشرع في القاء قصيدته حتى اذا بلغ قوله :

مالي اكتم حبا قد برى جسدي
وتدعي حب سيف الدولة الأمم ؟

يقاطعه ابو الفرج السامري قائلا : ويلك يا دعي كندة لقد هجوت الامير لأنك تزعم انالناس جميعا لا يحبونه الا ادعاء وانك وحدك المحب الصادق ولكن المتنبي يستمر في انشاد قصيدته الى أن يقول :

يا اعدل الناس الا في معاملتي
فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

فيقاطعه أبو فراس قائلا : لقد مسخت قول دعبل :

ولست أرجو انتصافا منك ما ذرفت
عيني دموعا وانت الخصم والحكم

قال المتنبي وهو ينظر ويشير الى أبي فراس :

اعيذها نظرات منك صادقة
أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

وثارت ثائرة أبي فراس وعلم انه هو المقصود فقال ومن انت يا ابن عيدان حتى تاخذ اعراض أهل الأمير في مجلسه ،واستمر المتنبي في الانشاد دون أن يلقي اليه اذنا صاغية الى أن قال ·

سيعلم الجميع ممن ضم مجلسنا
بانني خير من تسعى به قدم
انا الذي نظر الأعمى الى ادبي
واسمعت كلماتي من به صمم

فغلا الحقد في قلب أبي فراس وقد اخذ منه الغيظ كل مأخذ، ونال منه الغل كل منال فقال : قد سرقت هذا من عمرو بن عروة ابن العبد اذ يقول :

اوضحت من طرق الآداب ما اشتكلت
دهرا واظهرت اغرابا وابداعا
حتى فتحت باعجاز خصصت به
للعمي والصم ابصارا واسماعا

ولما انتهى المتنبي الى قوله :

الخيل والليل والبيداء تعرفني
والسيف والرمح والقرطاس والقلم

صرخ أبو فراس بأعلى صوته لأن عقارب الحقد لسعت سويداء قلبه · وماذا أبقيت للأمير اذا وصفت نفسك بكل هذا ؟ تمدح الأمير وتتبجح بوصف نفسك وقد سرقت هذا من قول الهيثم بن الأسود النخعي :

أنا ابن الفلا والطعن والضرب والسرى
وجرد المذاكي والقنا والقواضب

قال المتنبي :

وما انتفاع أخي الدنيا بناظره
اذا استوت عنده الأنوار والظلم

قال أبو فراس : وهذا سرقته من قول المعقل :

اذا لم أميز بين نور وظلمة
بعيني فالعينان زور وباطل

وينتهي بنا المطاف الا أن سيف الدولة قد أوغر صدره وضجر من كثرة مباهاة المتنبي بنفسه وتشامخه وعدم مبالاته فيتناول الدواة ويضرب بها المتنبي ويلطخ المداد ثيابه ، ولكنه بالرغم من ذلك يظل شامخ الراس كالطود الأشم الذي لا تزعزعه هب الرياح ويقول :

ان كان سركم ما قال حاسدنا
فما لجرح اذا ارضاكم الم

وهنا يستحسن سيف الدولة هذا البيت ويقع لديه بموضع الإستحسان والقبول فيعانق المتنبي ويجيزه · وهكذا نرى ابا فراس وأنصاره قد أكل الحقد قلوبهم · فركنوا الى التسلسل والانهزام · والله لتلمح في اعينهم بريق الغضب وان كانوا قد حبسوا ألسنتهم عن الكلام فقد أزمعوا في قرارة انفسهم وعزموا على الانتقام · ولعل مصرع المتنبي كان سببه عقارب الحقد التي اوغرت صدور حاقديه وأعدائه فاودت بحياته على الصورة التي حدثتنا عنها أسفار التاريخ ·

---

(١) الوفيات ١ ـ ٤٩٨

بعد الجريمة

تأليف : كونستان جيرول ـ ترجمة : محمد عبد الفتاح محمد

كان ذلك في اقصى القرية ، حيث انفتح شباك في عنف وتبدى منه رجل بوجه جامد التقاطيع ، شاعت فيـــه الزرقة ، وعينين باهتتين ، وشفتين مرتعدتين ، وكانت يده اليمنى قد تقلصت على خنجر يقطر منه الدم ·· وتلبث هنيهة يتلفت يمنة ويسرة نحو القرية المطمئنة الهاجعة ، ثم انزلق الى الارض ، وهرول يجـرى خلال الغابة ·

وتوقف بعد ربع الساعة يلتقط انفاسه من فرط ما ناله من جهد العدو ، واحتمى في حرج كثيف على كثب من ربوة عالية ، وراح يتلمس مخبا امينا بعيدا عن العيون ·· واخيرا انساب في الدغل غير عابىء بالحسك الذى يمزق جلده ويدمى قدميه ، واخذ يحفر الارض بسكينه ، حتى اذا ما حفر قدر قدم وضع الخنجر ، ثم هال عليه التراب واخفى الموضع ببعض الاعشاب والحشائش ، ثم قبع على الخضرة الندية يتلمس الهواء لرئتيه ·

وارهف السمع فانتابه الخوف من هذا الصمت المطبق الذى اجن القرية واحتواها ، كان الوقت وقت السحر حيث تبـدو المرائى كالاخيلة والاشباح · احس رهبة الوحدة في هذه الغابة الموحشة المطمئنة الى احضان الطبيعة النائمة ، ولكنه سمع فجاة صـــوتا بعث الرجفة في اوصاله ، صوت قرقعة عجلة في الطـريق على ما يقرب من فرسخ ، وما كان له ان يسمع الصوت على هذا البعد لولا هذا الصمت المطمئن الشامل ·· وبدات الطبيـــعة تستيقظ فحلقت القنابر في السماء الصافية تصدح باهازيجها كانها توقظ الفجر على انغام موسيقاها الرائعة ، وانتفضت سائر الطيور كانها تتنسم الروح الفواح وتتلقى الشذى المعطار ·· وكان كل شيء في الغابة رائعا مشرقا ، الا كتلة من الضباب الاقتم كانت لم تزل تجثم هناك ، وكذلك كان السهل المجاور الممتد هاجعا موحشـــا حيث تلثمه في نومه السنة الضوء الوليد المنعكسة على صـــفحة سماء الصبح المبكر السافر ·

ونهض القاتل ترتعد اوصاله فيترنح ، وتصطك اسنانه فيئن ويتاوه ، ويتلفت حوله في ريبة وحذر فيرين عليه خوف ورعب وخبل · وافسح لنفسه بين الاغصان المتشابكة طريقا ، ثم توقف لحظة ، ثم عاد يدب على الارض دبيب السارق ، وهو يدير راسه الى اقل صوت ينبعث الى اذنيه المرهفتين ، وبعـــد فترة ، ترك الحرج الكثيف حيث دفن الخنجر ، ومضى يتحسس خطـــاه ، ويضرب طوال النهار دون ان يحس تعبا ·· وتوقف لدى دغل من شجر الزان مضت فروعه في الهواء شماء بلونها الابيض وملمسها الناعم كانها آلاف العمد تحمل اكاليل الغار ·· وخيل اليه انه شبح انسان يدب بين ظلال الاشجار الجامدة كطيف من الجن ، له تمتمة غامضة وهمهمة مبهمة ·

وانخلع قلب الهارب ، واحس كانما يلفظ روحه مع انفاسه ، وزحف كالافعى الى مخبا بين اغصان متشابكة واطمان في حماها حتى اذا افرخ في روعه وثاب الى امنه ، رفع يده الى راســه ، ثم هبط بها الى بطنه ، ثم غمغم في وحشية ، انا جوعان ··· انا جوعان ·· ·

وافزعه صدى صوته ، وبعث الرجفة في بدنه ·· كان يتكلم لاول مرة منذ ان ارتكب جريمته ، وقد رن صوته في اذنه كناقوس الجنائز ، او كنذير قضاء لا محالة واقع ·· وجمد لا يتحرك بضع لحظات ، وعلق انفاسه كانما يخاف ان يسمعه انسان ·· وحين شاع فيه الامن قليلا ·· بحث في جيوبه فعثر على بعض النقود ، فقال في همس :

ـ فيهن الكفاية ، سأعبر الحدود في ست ساعات ، ولمة تعود الى نفسى الضائعة ، وساعمل للقوت ، وساكون بمامن ·

وانقضت ساعة احس بعدها بالبرد يكاد يجمد الدم في عروقه ، واشفق من الليل وما يبطه من برودة ، وهو يرتدى قميصا من التيل وبنطلونا من نسيج قميصه · ونهض من مجلسه ، وترك مكمنه في حذر وترقب ، ثم تابع سيره ، وكان قد وصـــل الى نهاية الغابة ·· يجب ان يدخل القرية الآن ·· وســيراه كل مخلوق في ضوء الصبح ·· وارهف هذا التفكير اعصابه لهول ما يتوقع · ولم يجرؤ على التقدم خطوة اخرى ·

وبينما كان مختفيا ، بلغ مسمعيه وقع حوافر جياد ، فامتقع وجهه حتى اصبح كالاموات ، ولهث يقول وهو يهبط بقامته الى الارض : « البوليس ·· ! » ·· وما كان غير فلاح ماض الى حقله يقود جوادين من جياد الجر ·· كان يصفر بفمه احدى المقطوعات الريفية بين فرقعة السوط في الهواء · وسمع صوتا يناديه :

ـ جاك ! فالتفت الفلاح نحو الصوت وقال :

ـ هذا انت يا فرنسوا ، اين تذهب مبكرا ؟

ـ اوه ! انى بسبيل الى الغدير حيث اغسل هذه الكومة من الثياب ·

ـ انني ذاهب على قيد خطوات من هناك ·· هلم وضع حزمتك على احدى الفرسين

ـ شكرا ·· كيف زوجك والاولاد ؟··

فضحك جاك وهو يقول :

ـ اراني اضعفهم اجمعين ·· كل شيء يمضي بخير ، عمـــل وصحة وبهجة ·

وضرب بسوطه الهواء ، وعاد صوت الـسنابك يعلو في اسلوبه النغم الرتيب · اتبعه القـــاتل بصره حتى اختفى ، ثم انشق صدره عن زفرة حارة وصوب بصره نحو القرية امامه ·· وقاول نفسه :

ـ الا يخلق بي ان ادخل القرية ·· لقد مر اربع وعشرون ساعة منذ ان ··· ولقد اكتشفوا الامر ولا ريب · وقد يكونون الآن بسبيل اذاعة خبرى واقتصاص اثرى ، وان ســاعة اخرى لكفيلة بان تطيح براسي وتقضى على ·

وانفذ عزمه اخيرا وخلف الغابة ·· وفي عشر دقائق راى برج كنيسة ، فاغذ السير نحو القرية تنتهبه الوســاوس وتتقاذفه الهواجس ، كان الجوع هو الذى يدفعه وينقل خطاه ، كان الخوف باديء ذي بدء ، هو الذى اصم اذنيه عن نداء بطنــه ، والذى ارغمه على قضاء الليل تحت الظل في العراء ·· واضـطرم في ذهنه صراع عنيف وهو يتقدم نحو القرية يتوارى بالجدران ويتستر في ظلال الاشجار ، وعندما اصبح على مقربة من طيته ، راى على بعد مائة خطوة ، شيئا يلتمع امام عينيه · آه !! ·· انه حزام الشرطي · وغمغم وهو يرتجف : لعله قد احيط علما باوصافي

واستدار سريعا ، ثم اهرع نحو غابة صغيرة كانت عن يساره حيث اختفى.. اوغل فيها وقد انسى جوعه الملحاح ، ما عاد يذكر الا الفرار من القرية والاختفاء عن عين الشرطى .. ولما كانت الغابة صغيرة فقد بلغ سريعا طرفها الآخر ، وعاد الى السهل الفسيح مرة اخرى .. وعندما انبسط السهل امام عينيه رأى من بين الأغصان رجلا يجلس على العشب النامى يتناول فطوره .. كان جاك الفلاح ... آه ! ليس اهنا من هذا الركن الذى انتحاه يتناول فيه طعام افطاره ، كان مكانا هادئا تكتنفه الصخور وتكسوه الحشائش النامية والنباتات المتسلقة والاشجار اللفاء والزهور ذات الألوان المختلفة التى افتن فى ابداعها الخريف .. وكان ثمة قناة صغيرة تنساب فى هدوء حيث تتجلى من غورها الحصباء اللامعة المتألقة كأنها العقيق والمرجان ، وكان هذا الوكر الجميل تكتنفه اشجار البتولا باغصانها ذات اللون الفضى .

وامام هذه الجنة الوارفة امتدت شجيرات القطن المنورة تتموج وتلتمع كأنها اشراك من فضة .. وكان افطار جاك من خبز وجبن وبجواره ابريق من فخار ملأه من القناة .

وانغرست اسنان الفلاح البيضاء فى قطعة الخبز فى شهية عظيمة بعثت الرغبة الملحة الى معدة القاتل .. وود لو يشاركه هذا الطعام الشهى ، الذى ما كان الفلاح يكف عن التهامه الا ليلقى الى جياده بكلمة ، او لفتة ، ليحثها على التهام كلئها هى الاخرى .. وتمتم القاتل : « كم هو سعيد ! كم هو سعيد ! » وصمت قليلا ثم قال : « اجل ! انه يجد عملا يدر عليه اخلاف الرزق ، وهو امن سعيد بين اهل يحبونه وصحب يهتمون بامره » ..

وكان يستبيل ان يسال جاك كسرة خبز ، ولكنه خشى ان يبعث الريبة الى قلب الفلاح ، بما يرتدى من اسمال ، وبما ينطق وجهه باضطراب وانفعال ، ولن يعفيه من سؤال يحرجه ، ونظرة مريبة تزعجه .

واتشق الصمت العميق عن صوت جعله يقفز ويستدير فى هلع .. رأى خلال الاغصان رجلا يرتدى مزقا مهلهلة ، يدب على الارض ، وقد امسك عصاه يتوكأ عليها ، وتدلت من عنقه مخلاة مملوءة بالصدقات المتحصلة .. كان شحاذا مسكينا .

وتحركت شفتا القاتل وهو يرقب السائل : « آه لو كنت مكان هذا الرجل ! حقا هو سائل يسأل الناس ، ولكنه حر طليق يغدو ويروح كما يشاء ، يتنسم الهواء الطلق ويستمتع باشعة الشمس ، بقلب هادىء ، ونفس راضية ، وضمير مطمئن ، يأكل دون خوف ولا الم ما يتصدق به عليه الناس ، لا يتسرب الى خياله شبح جثة ولا يطارده خيال شرطى ، ولا يداعبه طيف مشنقة .. » اجل ! انه سعيد هذا المتسول وكم احسده على ما هو فيه من نعمة وفضل » .

وامتقع وجهه فجاة امتقاعا شديدا ، واعترته رعدة هزت كل كيانه ، وتقلصت ملامح وجهه ، كأنما قد اصابته نوبة صرع .. « ها هم اولاء .. ! » انسابت هذه الكلمات من بين شفتيه فى تمتمة وهو ينظر الى نقطة سوداء فى نهاية الطريق .

ودارت حدقتاه فى حيرة تبحثان عن مكان يختفى فيه . ولكن الرعب شل حركته واعمى عينيه وسمر قدميه .. ابدا ما افلح فى السيطرة على افكاره الغائبة .. بينما كان رجال الشرطة يقتربون ، ورد عليه ذهنه العازب وقع حوافر الجياد .. ورأى امامه شجرة دردار مورقة فتسلقها فى خفة القرد ، وتوارى بين اوراقها الكثة .

واحس الاطمئنان حين ابتعد عنه رجال الشرطة بضع خطوات .. واصاخ السمع الى اصوات بدات تتموج فى الأثير فتبلغ اذنيه .. انصت دون ان يتحرك ، كان فريسة لنوازع هائجة تلهب دمه وتخلع قلبه .. وكان احد الشرطة قد قال :

ـ ماذا لو بحثنا فى هذا الحرج ؟

فقال آخر :

ـ انه جد صغير ، ولا احسب القاتل من الغباء بحيث يلوذ به ويحتمى فيه ، وان غابة كبيرة لأجدى عليه من هذا الحرج الضيق .

ـ على كل ، يجب ـ على سبيل الحيطة ـ ان نجوس خلاله .

ـ لست معك فى هذا ، انه لجهود ضائع ، فلقد سبقنا القاتل بعشر ساعات

وابتعدت الأصوات على طول الطريق ، فتنفس القاتل الصعداء ، كأنما ولد من جديد ، وتقشعت سحب الخوف من قلبه ، وعاوده الم آخر كان قد أنسيه للحظات قصار :

« يا الهى ! كم انا جائع » .. لم يكن قد تبلغ بشىء منذ ثمان واربعين ساعة .. ووهنت قدماه ، ولبه دوار شديد ، واحس كأن مطرقة تدق فى اذنيه .. ان التماس الخبز فى القرية لايخطر له ببال .. البوليس .. المشنقة .. كان هذان الشبحان يهتزان امام عينيه القرحتين ، ويظهران حتى على آلام الجوع الشديدة .

وبينما كان يتلقف الأصوات باذنيه ، اذا به يرتعد حين يتبين من بينها صوت ناقوس الكنيسة يدق دقات الموت . وانصت القاتل وهو شاحب الوجه ، منكسر النفس كأنما كل دقة من دقات الناقوس تهوى على قلبه ، وانبجست الدموع من عينيه ، وجرت تسح على وجنتيه دون ان يعبأ بها او يهتم بمسحها .

ورسمت دقات الأجراس فى خياله صورة رهيبة اهاجت رعبه وادمت قلبه ، فلقد كان ثمة كنيسة اخرى فى قرية اخرى تهتز اجراسها بمثل هذه الدقات الحزينة وتمتم وهو يخفى وجهه بيديه :

ـ يا لى من بائس !

واصغى ثانية الى دقات الناقوس التى تموجت فى اذنيه كحشرجة ضحيته المسكينة ، واستطرد يهمهم :

ـ يا للبطالة الآثمة ! هى التى قادتنى الى الحانة ، وهاهى ذى عاقبة ارتيادى الحانة : ثلاثة ايتام ، وزوجة مسكينة يستقر جثمانها تحت التراب .. وانا .. انا ، ذلك الوحش البغيض الذى يطاردونه ويقتصون اثره بلا هوادة ولا رحمة ، لا شك انهم سيقبضون على ، ويسوقوننى الى المشنقة .. يا للهول ! يا للقضاء المحتوم .. ومع ذلك فهذا هو القصاص العادل .

وتلبث فوق الشجرة حتى وقب الليل ، وخفتت الأصوات فى السهل المحيط ، الا من زفرات هذه الأنسام اللطاف التى كانت تتردد كأنها هى انفاس الارض النائمة .. وهبط كيما يتخذ على الارض وضعا يريح بدنه المنهوك .. وانطرح عند اسفل الشجرة ثم اغمض عينيه ، ولكن الخوف الذى كان يرين على قلبه ويتردد مع انفاسه ، والجوع الذى كان يمزق احشاءه ، ايقظا حواسه وارهفا اعصابه ، فقام من رقدته وقد تبينت خيوط الفجر ، ينوء ظهره بما حمل من خوف ومن تعب ، ومن ضعف لحقه من جراء صيام ثلاثة ايام سويا .

واحتدم جوعه واضطرم بفعل الهواء الطلق النقى ، فسكن خوفه ، وحزم امره ان يذهب الى القرية مهما يكن من خطر ، التماسا للخبز او يختل عقله لشدة ما تلقفه آلام الجوع الرهيبة .

ونفض ثيابه مما علق بها من حشائش ، وربط منديله حول عنقه ، ومر باصابعه خلال شعره اللبد الأشعث ، ثم خرج الى السهل ، ودخل القرية فى خمس دقائق .. سار يجر رجليه

جرا ومضى يتلفت حوله في ريبة وحذر متحفزا للفرار لدى الشعور بأي خطر .

وعلى مقربة من الكنيسة رأى حانة يخيم عليها الهدوء والعزلة فدخلها ، وكان صاحب الحانة رجلا فلاحا ، عريض المنكبين قوي البنية ، تدل ملامحه على السذاجة والطيبة . قال :

ـ ماذا تطلب أيها الرجل الطيب ؟

فأجاب القاتل وهو يتنحى مائدة بجوار نافذة مفتوحة تطل على الحديقة :

ـ خمرا وخبزا ... فأتاه الرجل بما طلب ووضعه أمامه قائلا :

ـ اليك ما تريد ، خمرا وخبزا ... ثم جبنا ... فقال القاتل وهو يخفي وجهه بيديه :

ـ ما سألتك جبنا ، بل خمرا وخبزا .

ـ أوه ! لا عليك من ذلك ، انما أردت أن تستعيد بعض قواك فاني أراك ـ ومعذرة ـ منهوك القوى مجهودا .. هلم .. كل ولا تعبأ بشيء .

ـ اذن فشكرا ... شكرا لك .

وفي هذه اللحظة عاد ناقوس الكنيسة يرسل دقاته ، فتساءل القاتل :

ـ ما هذا .. لماذا تدق الأجراس بهذا الاسلوب ؟

ـ لماذا !! انها دلالة انتهاء القداس .

ـ القداس ! في أي يوم نحن اذن ؟

ـ الأحد ... أحسبك لست مسيحيا .. حسنا ! سيقبل فورا نفر من شيعتك .

واحس القاتل انه سيفقد سيطرته على وعيه ، وود لو يفر من الحان فرارا ، ولكنه علم ان أية بادرة ستبدر منه قد تنم عنه ، بل تقضي عليه . اذن من الفطنة ان يتمسك بالهدوء والاتزان .. وما انتهى الى هذا العزم حتى رأى الرواد . وعبيد الخمر يتوافدون على الحانة حتى اكتظت بهم ، ومضى القاتل في طعامه وشرابه وهو يتجه بوجهه ابدا ناحية النافذة كيما يخفي عن الحضور ملامحه .

وتقضى ربع ساعة ، كان على الهارب كدهر طويل مفعم بالألم والعذاب ، وكانت كل كلمة تبلغ أذنيه تبعث الى وجهه الصفرة وتشيع في بدنه الرجفة . وكان على وشك ان يغادر الحانة حين ارتفع صوت يقول :

ـ ها هو ذا الأب فوشيه بريجادير بوليشيا ، الثاقب الذهن ، الذائع الصيت .

وسرت في القاتل رعدة شديدة هزت كل كيانه ، واسرعت يده دون وعي منه ، الى رأسه ، واندفعت دماء جسمه كلها الى قلبه ، ثم الى رأسه كأنه أصيب بفالج ... واستطاع ان يتمالك نفسه قليلا ، ولكنه لم يسيطر على أعصابه تماما .

وحين رأى البريجادير يدخل ، دفن رأسه في المائدة وتظاهر بالنوم .

واجاب الأب فوشيه :

ـ شكرا أيها الاخوان ، اما ان اجرع كأسا معكم فلا بأس ، ولكني لا أستطيع الجلوس الى سمركم هذا ، فالواجب يمنعني .

ـ الواجب ! أما لكنة ! ولكن اليوم يوم الأحد .. واللصوص في عطلة الاسبوع كالآخرين .

ـ اللصوص ! ربما ! ولكن الأمر يختلف مع القتلة .

ـ القتلة ! ماذا تعني أيها الأب فوشيه ؟

ـ اذن لم تسمعوا بحادث « سان ديدير » .

ـ كلا .. قص علينا خبره .

ـ ما جئت في الحقيقة الا لأصف لكم المجرم الذي نطارده .

وكاد صدر القاتل ينشق لشدة ما يدق قلبه ، وأردف الشرطي :

ـ انه رجل لا قلب له ، اسمه بير بيكار .

ـ ومن ضحيته ؟

ـ زوجته .

ـ يا للوغد ! وما جريمتها ؟

ـ ما كان يبدر منها وهو يطعنها سوى صرخات حبيسة مكتومة ، وما كان ذنبها سوى ذهابها اليه في الحانة تطالبه بطعام لأولاده منه وقد فتك الجوع بأبدانهم وصيرها ضعيفة مهزولة .. هذه كل جريرتها لديه ، المسكينة .. من أجل هذا قتلها ، في الهزيع الأخير من ليلة الثلاثاء .. كانت في الخامسة والعشرين من عمرها كان يجدر به ان يقبل التراب الذي تمشي عليه .. هذه البائسة ، لقد أمضت حياتها معه وقفا عليه وعلى أولاده ، وما كان جزاؤها سوى حياة مترعة بالشقاء والبؤس و ... وطعنات خنجر أجهزت عليها .

فقال شاب من الحضور :

ـ يا للوغد الزنيم ! ان ضرب رقبته قليل في جرمه المنكر .

ـ اذن فاستمعوا الى أوصافه حتى تقبضوا عليه اذا صادفكم .. انه ما زال يحوم حول القرية .

وخيم الصمت لحظات ، كان القاتل يصغي هو الآخر ، يكاد يتقد من شدة الحمى التي تسبح في دمائه .

ـ هذه هي أوصاف بير بيكار .

قال الشرطي ذلك وهو ينشر أمامه ورقة :

ـ متوسط الطول ، قصير العنق ، عريض المنكبين ، له فكان بارزان ، وأنف كبير ، أسود العينين ، ذو لحية مفلفلة ، وشفتين دقيقتين ، وشامة على الجبين .

وطوى الورقة واستطرد يقول :

ـ والآن ، لا ريب انكم ستعرفونه فور التقائكم به .

ـ بهذه الأوصاف لا يمكن ان نخطئه .

ـ اذن ، أقول لكم كما تقول الأغنية المعروفة « سعدتم مساء أيها الاخوان » . وسأنطلق في أثر المجرم .

وتنفس القاتل الصعداء ، وخطر له وهو يرقب رحيل الشرطي ان ست ساعات فحسب هي التي تفصله عن الحدود ، ومن ثم يصبح آمنا .

وكان على وشك ان يرفع رأسه حين سمع وقع أقدام الشرطي الثقيلة تتجه اتجاها آخر .. اتجاها أدنى صوتها من أذنيه .

وتوقف الشرطي على قيد خطوتين من المائدة التي يجلس اليها ، واحس القاتل ان نظرات الشرطي تلسعه كالسياط .. وتجمد الدم في عروقه ، وتصبب من كل بدنه عرق بارد ، وخيل اليه ان قلبه كف عن خفقه . وصاح به البريجادير :

ـ أرى امرءا هنا يغط في النوم .

ثم ربت على كتفه وقال :

ـ هلم يا صديقي ! ارفع رأسك لأرى وجهك .

فرفع بير بيكار رأسه في حدة .. كانت ملامحه مخيفة مفزعة ، وكان وجهه النحاسي متقلصا جامدا وعيناه تتوهجان كالجمر ، وشفتاه الدقيقتان ترتجفان كالمقرور .

وصرخ عشرة أصوات سويا .

ـ انه هو !

واتجهت يد الشرطي نحو بندقيته ، ولكنه قبل ان يمسه ، ضربه القاتل بقبضة يده مرتين ، جاءت كل ضربة منهما في كل من عينيه ، انحجب عنه الرائي ، ثم مرق كالسهم من النافذة الى الحديقة ، وثمة غاب واختفى .

وحين افاقوا من صدمة المفاجأة اندفع وراءه عشرون شابا يقتصون اثره ، وتسلق سور الحديقة ثم تقدم في الحقول ، وفي اقل من ربع ساعة ، كان قد ابتعد عن المدينة نصف فرسخ ، وعندما ايقن ان وعورة الارض تحجبه عن الانظار توقف يلتقط انفاسه ، فقد ابهظه الجرى ومسه الجهد ، وكان حقيقا ان يسقط فاقد الوعى لو ان هذه المطاردة قد استمرت بضع دقائق اخرى

بيد انه كاد يستقر قليلا ، حتى تقحمت اذنه اصوات هائجة فاصاخ السمع ... كانت اصوات مطارديه ... الآن ماذا يصنع، اما وقد اعياه جهد الفرار ، فانه يعجز عن الجرى ابعد من ذلك ، وعاهم اولاء على اثره ، ودارت حدقتاه في ياس ، كان السهل منبسطا فسيحا امام باصرتيه ، ما تعترضه صخرة ، وما تكتنفه حفرة ، ولا دغل صغير يستطيع ان يختبيء فيه .. ووقع بصره فجاة على مستنقع حيث ينبت على حافتيه الغاب والقصب ، فتنهد وقاول نفسه : « فلنحاول هنا ... » ثم غاص في المستنقع حتى رقبته واخفى وجهه ببعض نبات الماء والحشائش ، ومكث مكانه لا يتحرك ولا يريم كانه جذر غائب في تربته .

وحين وصل الفلاحون العشرون الى المستنقع كان الماء قد صفا بعدا كالمرآة ، وكان على راسهم البريجادير الذى عولج سريعا من الضربتين في عينيه وقال الأب فوشيه من فوق صهوة جواده وهو يتلفت حوله :

– اعجب اين اختفى هذا الوغد .

فقال فلاح شاب :

– اكاد اجن ! كنت اراه من لحظات . اين تراه ذهب ؟ لا ارى له اثرا كانما انشقت الارض وابتلعته .. انى لا ارى جحر فار يستطيع ان يخفى فيه انفه .

وسمع بير بيكار الجميع يتفرق وهم يمطرونه الشتائم واللعنات ، وارتجف بدنه وهو قائم في امواه المستنقع الراكدة ، وما خطر له ان يتحرك في مكانه مخافة ان يهز الماء فيتموج فينم عنه او تهتز الاعشاب التى تخفى راسه فينكشف امره .

وامضى هكذا ساعة كاملة ، كان خلالها يستمع الى وقع الاقدام وهى تغدو وتروح في السهل . كانت اذناه المرهفتان تلتقطان اقل صوت ينبعث واوهى نفس يتردد . واخيرا التقى الجميع ثانية عند المستنقع . وصاح الشرطى .

– بالشيطان ! لقد فر الوغد منا . ولكنى اكاد اجن . كيف فر واين اختفى . فقال قائل منهم :

– لعل ما صنع فعل ساحر .

– ساحر ، مشعوذ ، فانى لن ادعه يفلت منى . سأتقدم « بساباجو » الى المستنقع كيما يجرع بعض جرعات من الماء ، ثم امضى قدما نحو الحدود ، فلاريب قد فر الوغد الى هناك .

وادار الشرطى جواده نحو المستنقع وحثه الى البقعة التى اختفى فيها الهارب بين الاعشاب والقصباء .. ومد الحيوان عنقه وهو ينفخ في عنف ، ثم ارتد براسه ثانية ، وابى ان يتقدم خطوة . واحس بيكار بانفاس الحيوان تلفح خده .

وعرك البريجادير اذن ساباجو في لطف يحثه على التقدم ، بيد ان الحيوان تراجع خطوتين ، ولم يفلح صاحبه في حمله على التقدم سواء بالنكز ام بالمداعبة ، فقد اصر الحيوان على عناده . فقال البريجادير حانقا لأول مرة على الجواد :

– اراك تتمرد بدون سبب . ولكنك ستتقدم رغما عنك .

وهم ان ينكز الجواد ، حين مرق الحيوان يسارا كانما خشى مغبة عناده ، ثم غاص في المستنقع على بعد خطوات من المكان . فقال البريجادير :

– اراك عدت الى عقلك . ذلك خير لك ... وبينما كان الجواد يكرع الماء قال الشرطى للفلاحين :

– والآن ايها الاخوان ، لكم ان تئوبوا الى القرية ، وسأتكفل انا وساباجو بالمجرم الهارب .

فتركه الرجال داعين له بالتوفيق في مهمته ، وبعد ان ارتوى الجواد اعطى للمستنقع ظهره وانطلق براكبه ينهب الارض .

واضحى القاتل وحده . وبالرغم من ان برودة الماء كادت تقضى عليه ، فقد تلبث مكانه ربع ساعة اخرى ، ثم غادر المستنقع تتساقط منه قطرات الماء وتغطى راسه وكتفيه الحشائش والاعشاب . وكان بدنه يرتعد في عنف ، ووجهه يطفح بصفرة الموت ، ورمى ببصره في السهل المقفر ، وحاول ان يتكلم ولكن اسنانه كانت متشابكة . غير انه بعد جهد استطاع ان يقول اخيرا :

– لقد نجوت .

وتوقف قليلا ثم استطرد :

– اجل ! نجوت الآن فقط ، ولكن البريجادير يترقبنى لدى الحدود ، وكل شرطى على علم باوصافى ، بل ان الاهالى جميعا يجدون في اثرى .. صحيح ان المطاردة قد انتهت ، ولكن لكى تبدا من جديد .. انهم جميعا على اثرى .. انا ... عدو المجتمع . طريد القانون . انا الكلب المسعور .. الآن فالنضال مستمر والكفاح متصل ، والحرب مديدة لا هوادة فيها .. العالم كله يطاردنى حتى الله هو الآخر يضع العثرات في سبيل ، وانى لى الجلد على كل هذا .

وكان في اثناء ذلك ينفض – دون وعى منه – الاعشاب العالقة بثيابه . وتفرس في الفضاء المهجور من حوله .. لقد احس بالخوف والروع .. ان في قلبه كذلك نفس هذه الوحشة والبرودة والوحدة ... واخذ راسه بين كفيه وتلبث بضع دقائق غارقا في اخيلته وافكاره . واخيرا قال في عزم :

– لا مفر من ذلك .

ثم اتخذ سبيله نحو القرية ، حيث فر منذ قليل . وبعد ساعة كان في الحانة التى كاد البريجادير يقبض عليه فيها . ورأى ثمة كل الفلاحين الذين اقتفوا اثره ، فصرخوا في دهشة لمرآه :

– القاتل !!

فاجاب القاتل في هدوء :

– اجل ! انه القاتل ... بير بيكار . جئت اسلم نفسى . اخطروا البوليس .

واستوى الى مائدة في وسط الحان هادئا لا يتحرك ولا يريم .

وجاء بعد قليل رجلان من البوليس عرف فيهما بير بيكار ذينك الرجلين الذين مرا به حين كان مختفيا فوق شجرة الدردار .. ومد اليهما رسغيه في صمت فوضعا فيهما القيد ، ثم قاداه الى غرفة من غرف السجن في القرية الى حين ترحيله الى المدينة .

وحين القى نفسه وحيدا في غرفة سجنه المغلقة التى يقف عليها حارسان شديدان ، ارتمى على فراش سجنه ثم صرخ في سرور متوحش .

– الآن فقط احس الراحة والاطمئنان .

محمد عبد الفتاح محمد



الثقافة
اسبوعية
تصدر كل ثلاثاء
الرسالة
اسبوعية
تصدر كل خميس
المجلة
شهرية
تصدر يوم (٥)
الشعر
شهرية
تصدر يوم (١٠)
القصة
شهرية
تصدر يوم (١٥)
مجلات
الثقافة والارشاد القومي